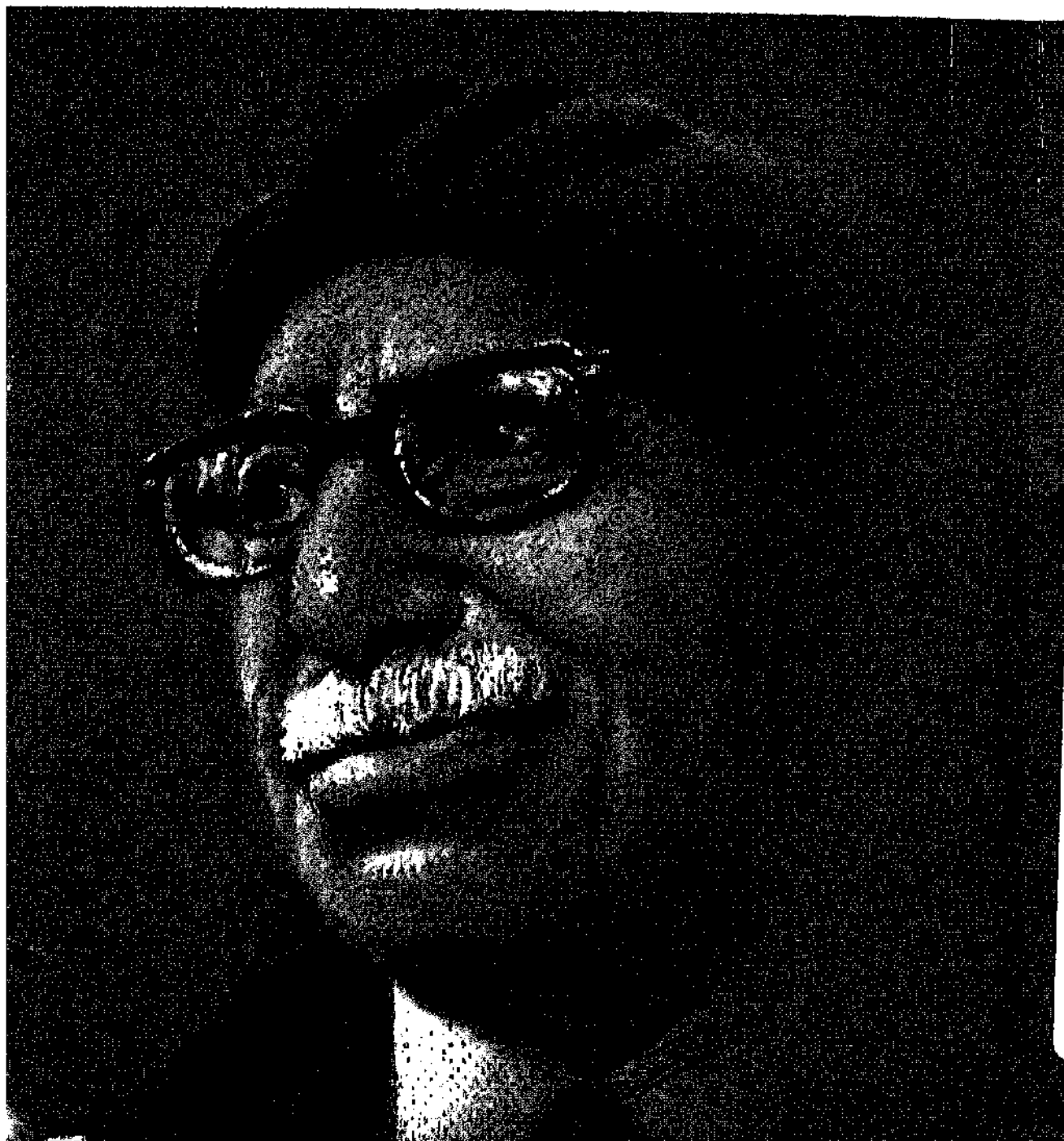




تحيات لسنة ...

توفيق الحكيم



توفيق الحكيم

تحديات

للسنة ... ٢٠٠٠

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد ﷺ (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

- ٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
- ٢٣ — الملك أوديب (مسرحية) ١٩٤٩
- ٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
- ٢٥ — فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
- ٢٦ — عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
- ٢٧ — أرى الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣
- ٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية) ١٩٥٤
- ٢٩ — تأملات في السياسة (فكر) ١٩٥٤
- ٣٠ — الأيدي الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
- ٣١ — التعادلة (فكر) ١٩٥٥
- ٣٢ — إيزيس (مسرحية) ١٩٥٥
- ٣٣ — الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
- ٣٤ — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦
- ٣٥ — لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
- ٣٦ — أشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
- ٣٧ — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) ١٩٥٧
- ٣٨ — السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
- ٣٩ — ياطالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢
- ٤٠ — الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
- ٤١ — رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
- ٤٢ — سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
- ٤٣ — شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥

- ٤٤ — مصير صر صبار (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٥ — الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
- ٤٦ — ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
- ٤٧ — قالبنا المسرحي (دراسة) ١٩٦٧
- ٤٨ — بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
- ٤٩ — مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
- ٥٠ — رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
- ٥١ — حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ١٩٧٤
- ٥٢ — الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
- ٥٣ — عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
- ٥٤ — في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
- ٥٥ — الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
- ٥٦ — ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
- ٥٧ — بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٨ — أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
- ٥٩ — مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
- ٦٠ — تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
- ٦١ — ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
- ٦٢ — التغادلية مع الإسلام والتعادلية (فكر فلسفي) ١٩٨٣
- ٦٣ — الأحاديث الأربعة (فكر ديني) ١٩٨٣
- ٦٤ — مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
- ٦٥ — شجرة الحكم السياسي (١٩٧٩ — ١٩٨٥) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثري كنتنترا بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما .
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
- عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
- بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ،
وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتنزا بريس)
بواشنطن ١٩٨١ .
- سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتنزا بريس) بواشنطن ١٩٨١ .
- نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بيت التمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
- الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس
عام ١٩٥٠ .
- السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتنزا بريس)
بواشنطن ١٩٨١ .
- خميس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتنزا)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتنزا)
واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدى الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان فى خطر : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣
وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٥٣ .
- لو عرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- وبالإنجليزية فى أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية فى لندن هاينان عام ١٩٧٣ .

وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .

يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ .
مع : كل شيء في مكانه .
السلطان الحائر .

نشيد الموت .

لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .

الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .

محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجي ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
المرأة التى غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج بيرلين .

عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار مأكملان — لندن .

إهداء

إلى روح ابنى إسماعيل
الذى ذهب منذ عام
لللقاء ربه وهو فى الثلاثين
قبل أن يرى سنة ٢٠٠٠

توفيق الحكيم

حوار ضاحك بين السادات والحكيم

دار حوار ضاحك بين الرئيس السادات وتوفيق الحكيم حول دفع رسوم عضوية اتحاد الكتاب، وقال الرئيس مداعبا توفيق الحكيم: ولكنك لم تدفع الرسوم.. فأجاب توفيق الحكيم بأنه دفع مرتين ولكنهم يدعون غير ذلك، ولم يسلموا إلى إيصالات..

ثم وجه الحكيم حديثه إلى الرئيس السادات قائلا: إن من يعبر عن أصالة مصر هو أنور السادات اليوم.. إننا قدمنا لكى نكرم أنور السادات ولكنه بادر بتكريمنا.. دليل على أن الكرم فى طبعه.. وقال مداعبا: ولكن الكرم ليس فى طبعنا نحن.

فأجاب الرئيس: أنتم الذين علمتمونا، ويجب أن نعترف بذلك. واستطرد الحكيم: إن ما أعطيتموه لمصر لا يمكن لأى قلم أن يعبر عنه ولا الكلام، لأننا عندما نتصور أن مصر قبل أنور السادات كانت فى حالة تمزق وهزيمة وبعد ذلك استردت أنفاسها، فهذا يعنى عطاء كبيرا جدا. وأقل ما يجب أن نقدمه فى الواقع ليس فقط الشكر، ولكن أيضا العرفان بالجميل.. لأن أنور السادات كان هو نورا جديدا فى الظلام الذى كنا فيه. ونرجو منك يا سيادة الرئيس انضمامك إلى اتحاد الكتاب، ورئاستك الفخرية تسير بنا إلى الأمام، ويشملنا نور آخر بمجهودات القلم

إن شاء الله .

فرد الرئيس قائلا : إنه قبل الاحتفال بعيد الفن في أكتوبر إن شاء الله ، أرجو أن نكون قد وصلنا فعلا إلى الأمور التنفيذية لكل هذا . أنا دائما باحلم بحاجة ، إن أى أديب في بلدنا لا يستطيع أن يعيش على إنتاجه . طيب ليه بره الأديب الفنان في عمل أو عملية بيعيش مدى حياته ، وعندنا لا ؟ وده كله لازم تنتهى منه ، ولازم كأحسن ما يطبق في أحسن دول العالم . أحسن دول العالم نحن قبلها بـ ٧ آلاف سنة .. لما كانوا لسة في الكهوف احنا كان عندنا حضارة ، وكان عندنا حكومة ، وكان عندنا دولة والله . في هذا أنا أرجو حقوق التأليف لأداء كل هذا بإذن الله .. لازم نفرغ منه في الحال . ليه ؟ لأنه زى ما قلت لكم احنا خلاص استردينا مصر لنا حرة وإرادتنا حرة ولا معقب علينا ، وعلينا أن نختار الطريق الذى نريده والبناء الذى نريده ، طيب ليه ما منعش كلنا فعلا كل وهو يؤدي لهذا البلد آمننا مطمئنا . ليه ؟ ده أساس .

وأضاف الرئيس : أنتم أسعدتوني حقيقة لأنى دى رسالة كبيرة وعميقة فأسعد قوى بها ، وفرصة طيبة أن ألتقى بكم لأنه لأول مرة التقى بهذا الجمع الكبير من كتاب مصر . وأرجو إن شاء الله إنه في الاتحاد نستطيع من وقت لآخر نلتقى ونناقش ونتعلم أكثر من العجوز ده « مشيرا إلى الحكيم ومداعبا » ..

تحديات سنه ٢٠٠٠

كان هذا هو موضوع الاجتماع الذى عقد فى اليونسكو بباريس فى أواخر يونية الماضى وضم جماعة من المفكرين بصفتهم الشخصية المستقلة عن أى تمثيل لبلاد أو جنسيات . وقد دُعيت إلى هذا الاجتماع وأُقيمت فيه كلمة جاء فيها : « إن التحديات التى سوف تواجه البشرية سنة ٢٠٠٠ لهى من الضخامة والتعقيد بحيث أجدنى فى غير موضع الاختصاص لمواجهتها بحبرة وتفصيل .. لذلك أكتفى بأن ألقى نظرة عابرة على واحدة من مشكلاتها التى تقلق بال الجميع فى وقتنا الحاضر » .

مشكلة الطاقة :

والخطورة فى مشكلة الطاقة تكمن فى أنها تهدد التقدم الإنسانى إذا لم يتم التوصل إلى إيجاد حل لها . ويبدو أن الإجماع يكاد ينعقد على أن الحل المباشر هو فى اكتشاف موارد جديدة للطاقة تجنباً لحظر الاعتماد على مورد واحد من الممكن أن ينضب . وهناك بالفعل خطوات قد بدأت لاستخدام الطاقة الشمسية والطاقة النووية وغير ذلك من الطاقات الناتجة عن التكنولوجيا الحديثة . وهنا التحدى الأكبر لسنة ٢٠٠٠ .

التكنولوجيا :

إن دفع التكنولوجيا إلى مداها البعيد سوف يقضى على مورد آخر .

للطاقة أهملائه في حياتنا المعاصرة : هو مصدر الطاقة الناتجة عن عضلات الإنسان . فالإنسان الحديث قد أخذ يعتمد في أبسط حاجاته على القوة الميكانيكية . حتى في البلاد النامية نجد أن استهلاك الكهرباء يزداد بسرعة وسوف يتضاعف من الآن إلى نهاية هذا القرن . معنى هذا أن إنسان هذا العصر ، في كل مكان ، في الصحراء وفي الأرياف وفي المدن ينقص باستمرار معدل استخدامه لقواه الطبيعية . فإذا استفحل هذا « الكسبل البشرى » إلى حد الاستغناء عن الطاقة البشرية والاتجاء كلية إلى الطاقة الآلية لتحل الآلة في نهاية الأمر محل الإنسان فعلينا أن نتوقع ذلك الإعلان الرهيب أن « الإنسان قد مات » في بداية القرن القادم ، على نحو ما أعلنه « نيتشه » في القرن الماضي إن « الله قد مات » .. يجب إذن ، لكي ننقذ الإنسان من هذا المصير المخيف ، أن نعمل منذ اليوم بكل عناية ودراية على إيجاد نوع من « التعادلة » بين الطاقة البشرية والطاقة الميكانيكية .

التعادلية الإنسانية :

ينبغي أن نعمل على تكوين إنسان القرن القادم تكويناً جديداً يكفل له عدم الاعتماد على الآلة إلا في الأعمال التي تعجز قواه الطبيعية عن أدائها .. وليس هذا مجرد الاقتصاد وتوفير الطاقة الصناعية فقط ، بل إلى جانب ذلك للمحافظة أيضاً على سلامة النوع البشرى بكل قدراته الجثمانية وفضائله الخلقية ، ودفاعاً عن الإنسان الطبيعي ضد غزو الإنسان الآلى .. ذلك أن الطاقسة صورة للحضارة . وأنه لأمر مرعب

أن نتصور أن حضارة القرن المقبل سوف تكون حضارة الإنسان
الآلى ...

الإنسان حى والله موجود :

كلنا أمل أن نخفت صيحة الخطر : « الإنسان قد مات » ، وأن تعلم
صيحة أخرى مطمئنة « الإنسان حى » على نحو ما خفتت صيحة
« نيتشه » فى القرن الماضى وارتفعت صيحة أخرى لبعض المفكرين
المعاصرين اليوم : « إن الله موجود » . وأكفى بذكر كتاب واحد ظهر
حديثا للمفكر : « أندريه فروسار » (بيع منه ملايين النسخ) « الله
موجود لقد قابلته » .. وهنا مشكلة أخرى من مشكلات سنة ٢٠٠٠
يجب أن نتدبرها منذ الآن : الدين . ما هى العلاقة التى ستقوم بين الدين
والعلم ؟

الدين والعلم :

إن الدين — هو القيمة التى اختص بها الإنسان وحده — هو الذى
يجيب عن هذا السؤال الخالد على مدى القرون : « من الذى خلق
الدنيا ؟ » ... هل يستطيع العلم الملحد فى القرن الماضى أن يصبح مؤمنا
فى القرن القادم ؟ قد أفهم أن كلمة « الدين » وحتى كلمة « الله » عند
رجال العلم قد يكون لها من المعنى والمداول ما يختلف عما عند رجال
الدين . ولكن السؤال يبقى دائما هو السؤال الخالد للبشرية . كل قرن
وعصر يطرحه . وكل القرون والعصور القادمة سوف تطرحه بدورها ..
حتى الكواكب البعيدة والمجرات السحيقة : « من الذى خلق

الكون ؟ .. إذا سكت العلم تكلم الدين .. على كل حال يجب أن نضع في قائمة المسائل المتعلقة بسنة ٢٠٠٠ مسألة العلم في مواجهة الدين . وإني لأود أن أسمع في هذا الصدد رأى رجل العلم الكبير الحاضر معنا الآن : « ألفريد كاستلر » ..

رد العالم كاستلر في الدين والعلم :

ورد عالم الفيزياء ألفريد كاستلر الحائز على جائزة نوبل عن أبحاثه في المادة والضوء والمؤلف لكتاب علمي صدر أخيراً بعنوان « المادة ، هذا الشيء المجهول » ذكر فيه أن العلم كلما توغل في دراسة المادة انتهى إلى أنه لا يعرف عنها شيئاً ، وأن هناك شيئاً فيها سوف يظل أبداً الدهر مخفياً عنا .. وقد حرص على أن يخط بيده باللغة الفرنسية جوابه على سؤال . وهذا نصه بعد ترجمته : « طلب توفيق الحكيم رأيي في العلاقات بين العلم والدين .. بين هذين النشاطين المعنويين للإنسان . ولا أعتقد أنه يوجد تناقض بينهما . فهما في علاقة أحدهما بالآخر يعتبران متكاملين وليسا متعارضين ، فالعلم والدين كل منهما يتحدد طبيعته طبقاً لخطوة مختلفة في مجال النشاط الإنساني المعنوي . فالعلم مجاله المعرفة ، وميدانه دراسة الوقائع المتراكمة أمام حواسنا أما الدين فمجاله الإيمان . وفي كل الأزمان وجد ويوجد رجال العلم المؤمنون ، ورجال العلم غير المؤمنين ، وإني أود أن أسمع لنفسى بنقد تعبير لتوفيق الحكيم وهو يتحدث عن العلم الملحد في القرن الماضي . إذ يبدو لي من غير الممكن وصف للعلم في القرن التاسع عشر على هذه الصورة . فهذا القرن نحا إلى الاتجاه الفلسفي الذي أطلق

عليه « المادية العلمية » معتمدا على نتائج للعلم لم تكن بعد مكتملة ، مما جعل بعض العقول تستنتج منها عدم وجود الله . فوجود الله ، خالق هذه الدنيا ، لا يمكن إثباته كما لا يمكن نفيه بالعلم . فالعلم لا يوصف بأنه متدين ولا بأنه غير متدين . فرجل العلم يحاول تعليل الخليفة على أساس مبدأ « السببية » Causalité أما رجل الدين فهو يؤكد الوجود على أساس مبدأ الغائية » .

فهذان المبدأان « السبب » و « الغاية » . والبداية والنهاية كما استطاع الفكر الإنساني أن يستوعبهما ، يتكاملان ولا يتعارضان .
« ألفريد كاستلر »

من تحديات سنة ٢٠٠٠

القنابل الذرية

من المسائل التي يهتم بها العالم اليوم ويحسب لخطورتها كل حساب ، مسألة الزيادة في عدد مراكز الطاقة النووية في عديد من الدول .. لأن هذه المراكز المنتجة للطاقة النافعة والضرورية ، هي أيضا معامل لصنع البلوتنيوم ، المادة الأولية للقنابل . وهنا يكمن الخطر الجسيم من تعدد هذه المراكز النووية .. غمنا المتوقع أن تستطيع نحو عشرين دولة الحصول على قنابل ذرية قبل نهاية هذا القرن .. وقد نشرت قائمة بالبلاد التي في إمكانها أن تمتلك سرا هذه القنابل .. وهي : إسرائيل ، وجنوب أفريقيا ، وتايوان .. كما أن البلاد التي يمكنها امتلاكها في عام ١٩٨٠ هي : الأرجنتين ، والباكستان .. أما البلاد التي تستطيع امتلاكها حوالى عام ١٩٨٥ ، فهي : مصر وكوريا الجنوبية وإيران ، والبرازيل وتركيا ، ويوجوسلافيا .. كما أن هناك دولا في استطاعتها إنتاجها في أقل من عام واحد عند الحاجة ، وهي ألمانيا الغربية واليابان ، وكندا ، وإيطاليا ، والسويد .. وكذلك في أقل من خمس سنوات ، مثل : أستراليا ، وسويسرا ، وبلجيكا ، والبلاد الواطئة .. كل هذا بالطبع خارج الدول الست الأعضاء فيما يسمى « النادي الذرى » ، وهي : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفيتى ، وبريطانيا ، وفرنسا ، والصين ، والهند .

ووجه الخطر المروع في هذا الانتشار لهذه القنبلة الذرية بين عديد من الدول ، ومنها الصغيرة غير المسؤولة ، هو أن أى خلاف إقليمي ينشب بينها وبين جيرانها قد يغريها ويدفعها إلى حسم موقفها باستخدام سلاح القنبلة الذرية ، الذى تملكه. وقد يؤدى ذلك إلى حد التراشق بهذه القنابل الذرية بين دول لا ندرى عددها ، مما قد يحدث من التفجير والتدمير ما يهدد الجنس البشرى كله .. أمام هذا الرعب النووى ، تقدم اثنان من العلماء هما : ألفريد كاستلر الفرنسى ، وفلاديمير كيمونوف السوفيتى ، بمشروع لطلب مقدم إلى الرئيس الأمريكى كارتر ، والرئيس السوفيتى بريجنيف ، كى يستخدمنا نفوذهما فى الحث على ضرورة تطبيق المادة السادسة من معاهدة عدم انتشار القنبلة النووية ، الصادرة عام ١٩٧٠ .. وهى المعاهدة التى صادقت عليها الجمعية العامة للأمم المتحدة .. على أن يقوم الرئيسان بهذه الخطوة فى أقرب وقت ، لأن مصير النوع الإنسانى يعتمد على ما سوف يتخذانه من قرار .. وقد وزعت علينا ، نحن الحاضرين فى اجتماع شهر يونية الماضى ببيتة اليونسكو فى باريس صور من هذا الطلب كى يوقع كل عضو على صورة خاصة به .. وقد وقع جميع الحاضرين ، وجمعت كل الصور الممضاة لترسل إلى الرئيسين على أنها من شخصيات علمية وثقافية ، لا تمثل إلا أنفسها .. وقد وقعت ، مثل الجميع ، على الصورة الخاصة بى ، غير أنى أضفت حاشية ذكرت فيها : إنى آمل أن تقرر عقوبة على الدول التى ترفض التصديق على هذه المعاهدة .. وأقل عقوبة تفرض هى استبعاد الدولة الرافضة من عضوية الأمم المتحدة .. ذلك أن هيئة الأمم المتحدة ليست سوى أسرة البشرية

كلها مجتمعة للحفاظ على سلامة البشر وأمنه ، وليس من المقبول أن يشذ
عضو ويرفض ما فيه الأمن لأسرة الإنسان ..

معنى التقدم :

كذلك طرحت على مؤتمر التحديات في سنة ٢٠٠٠ ، مسألة
أخرى ، رأيت من الأهمية طرحها : تلك هي مسألة الكلمات غير المحددة
المعنى .. فنحن نطلق من الكلمات ما يشبه القذائف العشوائية غير
المحسوبة الأبعاد .. فإذا بلغت في انطلاقها على هذا النحو سنة ٢٠٠٠ ،
وما بعدها ، فلسنا ندري على أى وجه سوف يؤخذ بمحملها .. من هذه
الكلمات كلمة « التقدم » ، التي كثر استعمالها اليوم ، حتى أصبحت
كالعملة المتداولة في كل سوق ، إلى حد انطماس أرقامها ، وغمض معالم
مدلولها .. إنها في حاجة إلى تحديد وتحليل وقبل كل شيء يجب أن نطرح
على أنفسنا السؤال المحدد : « التقدم » بالنسبة إلى ماذا ؟ وإلى أين ؟ ..
كلمة التقدم من الكلمات التي لا تهض بذاتها .. فهي لا بد أن تضاف إلى
شيء أو إلى شخص .. يجب في تحديد كلمة « التقدم » من معرفة المتقدم
عليه .. هل هو زمان أو مكان أو حالة أو حيوان أو إنسان ؟ .. وما هي
المواصفات والدرجات التي تتخذ منها الموازين والمقاييس التي نحكم بها
على أن هذا الشيء أو هذا الإنسان أو هذا المجتمع متقدم أو متأخر عن
نظائره ؟ .. وهل التقدم حركة في خط مستقيم أو خط دائري مثل حركة
الكواكب والأفلاك ؟ .. وهل تقدم الإنسانية مشابه لتحرك كوكبنا
الأرضي في مساره حول الشمس ؟ .. وأن ساكن الأرض مثل كوكبه

تقدمه دوران .. وبذلك يوجد دائما ما نسميه : « العودة الأبدية » .. كل هذا يدعوني إلى المطالبة بإعادة النظر في المعنى والمدلول لكلمة : « التقدم » ، فلا تلقى بغير تحديد دقيق .. ففي العلم النظرى والتطبيقي مثلا يمكن الحكم بالتقدم فيما وصل إليه الطيران ، والخروج عن جاذبية الأرض ، وهو ما لم يكن معروفا في أزمان سابقة ولكن في العلم الوجداني والروحي لا يمكن أن نجد مثل هذا المقياس للحكم .. فالتقدم في العلم يجعل الخطوة الحاضرة فيه تلغى الخطوة الماضية .. فما جاء به أينشتاين يمكن أن يلغى ما جاء به نيوتن .. ولكن التقدم في الفن مثلا لا يمكن أن يسير على هذا النهج ، فما جاء به بيكاسو لا يلغى ما جاء به رافاييل .. والموسيقى الجديدة لا تلغى الموسيقى القديمة فإذا دخلنا عالم الروح القائم على الإيمان ، لا نجد التقدم ولا التأخر .. إنما نجد الوجود الدائم ..

معنى الاستقلال :

كذلك التعريفات والاصطلاحات التي استعملت وأطلقت في وقت من الأوقات ، وكان لها من المعنى ما يلائم ظروفها .. غير أنها استقرت في الأذهان بصورة معينة أوحى بكونها من الثوابت والمسلمات التي لا سبيل إلى مناقشتها ، فإذا بظروف جديدة في عصر جديد يغير معناها مثل تعريف « الاستقلال الوطنى » .. فلقد فهم من هذا الاصطلاح أن كل وطن أو بلد يجب أن يحبس نفسه داخل مصالحة الخاصة وحدها ، دون أن يدخل في حسابه المصالح المشتركة لكافة البشر .. أهى إلى هذا الحد صعوبة أو استحالة أن نتصور يوما تجتمع فيه كل حكومات الدول على اختلاف

أوطانها وأديانها وأجناسها ، كى تبحث مشكلات الإنسانية عامة ، كما لو كانت وطننا واحدا عاما ؟.. أليس لنا الحق فى أن يملأ قلوبنا هذا الأمل ، ويداعب أجفاننا هذا الحلم ؟.. أم أن المعنى الضيق لتعريف : الاستقلال الوطنى لبلد من البلاد هو المسئول ؟.. ولذلك فهو يحتاج إلى إعادة نظر وتفسير ... ؟

فى رأى أنه بغير هذه المراجعة الشاملة لكل معطيات حضارتنا المعاصرة من حيث المعانى والمواقف والمدلولات ، فإن من المرجح عندى أننا سوف نفاجأ فى سنة ٢٠٠٠ بتحديات أخرى غير متوقعة ولا منظورة ولا داخلية فى الحساب ...

صفحة من ذكريات ..

الحضارة والحوار

لست أدري لماذا لم أكتب شيئا عن الفترة التي لحقت فترة اشتغالي في سلك القضاء ؟ .. لقد عملت بعد ذلك في وظائف مختلفة ، لى فيها من الذكريات ما كاد يضيع ، وكاد العمر يضيع قبل أن أدون بعضها .. وها هى ذى صفحة منها تذكرنى بها الظروف .. لقد انتقلت من عملى بالريف إلى وظيفة فى وزارة المعارف العمومية (التربية والتعليم) . كان ذلك فى أوائل الثلاثينات — فى عام ١٩٣٣ — باتمام — أى منذ سبعة وأربعين عاما بالضبط . ولعل شبح الشقاء فى الأرياف ، والحياة المهمة فيها ، ظل يلزمنى بعد استقرارى فى القاهرة ، فنشرت مقالا ألفت فيه نظر الدولة إلى ضرورة الاهتمام بشئون الريف والمجتمع ، وخشيت أن تتعلل الدولة وقتئذ بعجز الميزانية عن إنشاء وزارة خاصة لمثل هذه الأمور ، فلجأت إلى التيسير واقترحت فى ذلك المقال إلحاق هذه المهام الجديدة بوزارة الأوقاف ، للانتفاع بمواردها فى هذه النواحي الإصلاحية ، على أن يطلق عليها اسم « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » ..

* * *

ومضت الأيام .. وتغيرت الحكومة .. وجاءت حكومة جديدة تلقفت الفكرة وتشجعت وأنشأت لها وزارة الشؤون الاجتماعية ..

ونص في قرار إنشائها على أن تقسم إلى مصالح وإدارات منها : « مصلحة للفلاح والتعاون » ، و « مصلحة للعمل » ، و « إدارة للإرشاد » ، وهكذا ... وكنت في ذلك الحين مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، فتقلت بنفس درجتى مديرا لإدارة الإرشاد فى الوزارة المنشأة .

* * *

.. كان ذلك على ما أذكر فى شهر أكتوبر من عام ١٩٣٩ . وما كدت أتسلم الإدارة الجديدة حتى تكشفت لى حقيقة الوضع ، وبدأ الأمر كما .. توقعت .. الميزانية ضعيفة .. والوزارة الجديدة قد قامت فى الهواء بلا نقود .. وإذا نحن فيها جميعا منقولون بالانتداب ، وكل منا متروك لنفسه ، فى حيرة من أمره ، لا يدرى أين يجلس ، ولا كيف يعمل .. وكان اختصاص إدارتى على الورق ، كما جاء فى القرار ، يشبه اليوم اختصاص وزارة الإرشاد أو الإعلام أو الثقافة أو كلها مجتمعة .. فالمسرح والسينما والإذاعة والمعارض والموالد والفنون بأنواعها وهلم جرا ... كل ذلك يدخل فى اختصاصى .. ولكن المشكلة كيف أجمع وأللم هذه الأشياء ، وهى متفرقة فى وزارات مختلفة .. فالمسرح كان يتبع وزارة المعارف ، والسينما تتبع وزارة الداخلية ، والموالد وزارة الأوقاف ، والإذاعة مستقلة ، والمعارض والفنون تتبع هيئات أهلية وهكذا .. كيف أنشئ إدارتى الجديدة إذن من هذه الأشتات ؟ .. سألت العون عند وزيرى فوجدته هو أيضا فى حيص بيص .. ولم يعين له أحد وكيلا للوزارة ، واكتفت الحكومة بتعيين سكرتير عام مؤقتا ، وهو الآخر لم يكن يعرف له

رأساً من قدم .. وانتهى بي الأمر إلى أن قررت الاعتماد على نفسي ،
وذهبت أبحث عن اختصاصي في كل فج عميق من فجاج الدواوين ..
وكانت كل جهة من تلك الجهات تتبرم بطلبي .. ولما طال إلحاحي ،
جعلت كل جهة من تلك الجهات تلقى إلى بأكوام من الملفات
والدوسيات والأضابير وهي تقول : « هذا هو اختصاصك ، تفضل
استلمه » .. فأجمع هذه الأكوام وأضعها في عربة حنطور على نفقتي
وأذهب بها إلى إدارتي .. لقد تحملنا كثيراً من العناء ، وتعرضنا إلى كثير
من السخرية ، وأصبحنا موضع تندر من الناس والصحف ونحن نؤسس
هذه الوزارة الحديثة التي لم يكن لها مثال نحتذيه في تاريخنا ، ولا في تاريخ أى
بلد من البلاد التي نعرفها .. وأخيراً استقر بنا الأمر على وجه من الوجوه ،
وبدأنا نتوسل ونستعطف ونتسول ، إلى أن وضعت لنا شبه ميزانية
مستقلة .. وبدأنا نفكر في أوجه النشاط الممكن .. وكان من ذلك أن
رأينا إنشاء مجلة خاصة بالوزارة .. وكانت بالضرورة تتبع اختصاصي
وإدارتي .. وهنا نشأت لي متاعب جديدة لم تكن في الحسبان .. رأينا أن
يكون لهذه المجلة رئيس تحرير يتفرغ لها من بين الموظفين الأدباء ..
واستكتبنا لها الأقلام المشهورة في كل اتجاه ومجال .. فكان يكتب فيها
سلامة موسى بأفكاره الجريئة المتحررة ، كما كان يكتب فيها محمد
الهياوي الأديب الإسلامي المعروف ببلاغة أسلوبه العربي وأفكاره
المحافظة .. واعتدت في كل صباح وأنا أتناول فنجان قهوتي ، أن أرى
رئيس التحرير يدخل على ليطلعني على سير الأمور ... وفي ذات يوم دخل
واضعاً يده على رأسه قائلاً :

— الصداع ... الصداع .. لم أعد أطيع ولا أحتمل ... لا بد أن أقول لك ...

قلت له :

— اهدأ وقل لي .. ما هو الموضوع ؟...

قال :

— سلامة موسى ومحمد الهياوى ... أنا في صداع دائم منهما ... أرجوك أنقذنى ... ابحث لي عن حل ... قلت له :

— ماذا جرى ؟.. اشرح لي الموضوع بدون انفعال ...

فهدأ قليلا وقال :

— الموضوع باختصار أن كل يوم يأتي عندى محمد الهياوى يطعن في سلامة موسى ، فإذا خرج دخل سلامة موسى يطعن في محمد الهياوى .. وكل منهما يقسم لى أنه سيكف عن الكتابة إذا لم يمنع الآخر منها .. أى لا بد أن نخرس أحدهما كي يكتب لنا الآخر ، وأن نستغنى عن واحد منهما ونستبقى الآخر بمفرده ... ماذا أفعل بين هذين الكاتبين المحترمين ؟... وماذا يكون الحل في هذه المشكلة ؟

فقلت له ميسرا :

— أهذه مشكلة عويصة ؟... أنا أحلها لك ... إذا جاء إليك أحدهما

فأرسله إلى هنا ..

وانصرف ...

وفي اليوم التالى أرسل إلى حسب الاتفاق سلامة موسى .. فدخل

بيادرني بقوله :

— اختاروا بيني وبينه ...

فتجاهلت وقلت :

— من تقصد ؟

قال :

— هذا المدعو محمد الهياوى .. أيعقل أن تستكتبوا في مجلتكم التى تدعو إلى الإصلاح الاجتماعى ، هذا المتخلف البدائى ، صاحب العقل المغلق ، الذى يعيش بأفكار مضى عليها أكثر من ألف عام ...

قلت له بهدوء وابتسام :

— نحن نستكتبه من أجلك ...

فبدت عليه الدهشة وقال :

— من أجلى أنا ؟

قلت :

— طبعا .. من أجل أن تقوم برسالتك على خير وجه .

فقال مستغربا :

— ما هذا الكلام ؟

قلت له :

— ما هى رسالتك ؟ .. أليست هى إمداد الهياوى وأمثاله بأفكارك الجديدة ؟ .. ولكى نضمن اطلاعه على أفكارك يجب أن يكون موجودا هنا بجوارك .. وجوده ضرورى حتى تستطيع أنت أن تقوم بمهمتك .. ولو كانت كل العقول والأفكار مثل عقلك وفكرك فما هى الضرورة

لكتابتك ... أنت تكتب لأمثال الهياوى .. فأنت موجود لأنه هو موجود .. فدعه يعرض أفكاره القديمة ، وحاول أنت أن تصلحها بأفكارك الجديدة ..

فأطرق قليلاً وبدأ عليه الاقتناع .. وقال بلهجة مترددة :

— أنظن مثله يمكن أن يصلح ١٩

قلت له :

— رسالتك هي إصلاح العقول ... وليس عليك أن ينصلح فلان أو

لا ينصلح .

قال :

— نحاول ...

وخرج .. وقد هدأت نفسه ...

وبعد يوم ، جاءني محمد الهياوى يصيح :

— هذه كبرى الكبائر وقمة المهازل والمبازل .. تستكتبون في مجلتكم

الرسمية ، وفي بلاد إسلامية هذا الزنديق المتحلل المدعو سلامة

موسى ؟ ... هذا كفر مبین ... والله ... والله ... لن أكتب فيها حرفاً

بعد اليوم إذا تركتم هذا الشخص يكتب بجوارى ..

قلت له :

— اجلس واهدأ قليلاً .. واسمع رأيي .. أنت رجل حجة في الدين

ولك أسلوب عربى مبین ... وإذا لم تكن رسالتك هي إلقاء نور الإيمان في

صدور الزنادقة ، فلماذا تكتب إذن ؟ .. نحن نستكتب سلامة موسى إلى

جوارك حتى يستطيع نور إيمانك أن يصل إليه وينفذ إلى قلبه ...

— ٢٩ —

— أهذا قصدكم ...؟

قلت :

— بدون شك ... وأنت خير من يعرف أن رسالات الرسل إنما قصد بها هداية الضالين ... ولو كان كل الناس مهتدين لما كان هناك لزوم لنزول الرسل والأنبياء ...

قال :

— هذا صحيح .

قلت على الفور :

— إذن يجب أن يكون إلى جوارك سلامة موسى كي تهديه ... فقال وهو يهز رأسه :

— والله هذا لن يهديه ألف نبي ..

قلت له !

— أنت ما عليك إلا أن تكتب والهداية من عند الله ..

قال :

— صدقت ... ولكنه يكابر ويمجادل ..

قلت :

— جادله أنت أيضا .. ولتكن المجادلة بالتى هي أحسن ... إن الإسلام ، كما تعلم ، يعترف بالجدل ولا ينفيه .. ولا يشترط إلا أن تجادلوا بالتى هي أحسن ، أى بغير عنف ولا فحش ...

قال مصادقا :

— حقا .. تلك هي آداب المجادلة في الإسلام ...

قلت له :

— هذا إذن دليل على أن المجتمع الإسلامى الحقيقى كان يعرف رحابة الصدر ، ولا يعرف الإرهاب والإكراه والخنق لآراء الآخرين ...
قال مسترسلا :

— هذا حق .. ولو أراد الله أن يجعل الناس أمة واحدة وفكرا واحدا لفعل ... ولكنه — سبحانه وتعالى — عدد الأمم ونوع الأفكار ...
قلت مضيفا :

— ومن تنوع الأفكار واختلاف الآراء واحتكاكها وتعانقها تتوالد الحقائق المضيئة ... وقد تجد عند سلامة موسى بعض ما ينفعك ويرضيك ، وقد يجد هو عندك بعض ما ينفعه ويرضيه ... فلا يوجد عند أحد الشر كله أو الخير كله ... فليحاول كل منكما أن يعرف ما عند الآخر ... أما الإصرار على الابتعاد عنه والجهل به فهو العمى ... ولا يصح لإنسان عاقل أن يفقأ عينيه بيديه حتى لا يرى ما عند الآخر ...
ادرس ما عند الآخرين وتخبر منه ما ينفعك ...
قال :

— وهل عند بلشفيكى ملحد مثل سلامة موسى نفع أو خير؟ (كلمة بلشفيكى وبلشفية كانت الشائعة وقتئذ أكثر من كلمة ماركسية أو شيوعية)
قلت له :

— ها أنت ذا تجهل ما كان يجب أن تعلمه ... إن سلامة موسى ليس ملحدا ، بل هو مسيحى مؤمن .. وقد أهدى إلى كتابا نفيسا مجلدا أحسن تجليد ... هذا الكتاب قد يدهشك أن تعلم أنه « الكتاب المقدس » ..

وكان يجب أن أهدي إليه بدورى نسخة فاخرة من القرآن الكريم ...

قال :

— عجيبة ...؟

قلت :

— أرايت ؟.. إن الجهل بالآخرين آفة من الآفات .. ولعلك تعرف أن من خيرة المسيحيين من درس القرآن لينتفع ببلاغته ، ومن المسلمين من قرأ التوراة والأنجيل لينتفع بعبورها ، دون أن يكون فى ذلك مساس بعقيدة طرف من الأطراف ... يجب أن نفتح العقول لكل هواء ونور ولا نخشى شيئا .. فالصحة كل الصحة ، لا يمكن أن تكون بغلق النوافذ .. إن أول ما يقوله طبيب لمرضى هو : افتح النافذة ليدخل لك الضوء والهواء ...

قال بعد إطراق :

— على كل حال ... نحاول ...

وانصرف ...

وجاءنى رئيس التحرير بعد أيام ، فبادرته بقولى :

— هل زال عنك الصداع ...؟

فقال باسم :

— زال والحمد لله ... كل واحد منهما يأتى حاملا مقاله فأستلمه منه

ويمضى فى هدوء ... ماذا حدث ؟..

قلت له :

— حدث أن كل واحد منهما عرف حقه وحق غيره فى التعبير عن

رأيه .. أنت أيضا عليك أن تعرف شيئا ...

— ما هو ؟

— هو أن تذكر كل من يكتب عندك أن يكون الجدل والحوار بين الجميع في إطار الاحترام المتبادل ، بعيدا عن المهاترات ، مرتفعا عن التجريح الشخصي ، وإلا فقدت حرية الرأي والتعبير الكثير من قيمتها وجلالها .. أدب الحوار والجدل أن يكون ذلك بالتي هي أحسن ...

تحضرنى من صور الحوار والجدل كذلك ما كان يحدث أمامى في جلسات المحاكم .. كنت ألاحظ ذلك المشهد العجيب : مشهد طرفين متناقضين تمام التناقض ، طرف يطلب رأس متهم ، وطرف يطالب ببراءته .. أيوجد تناقض أكثر من هذا ؟ ... ولكن الحوار والمساجلة والمجادلة بين الحجج والأدلة هي التي تشد اهتمام الجمهور الحاضر في الجلسة ... جمهور يبدو عليه أنه يشارك بفكره ويزن بعقله وهو يصغى إلى شهود الإثبات وشهود النفي ، أى إلى الشيء وضده .. وكأنه يشعر في قرارة نفسه بأن مداركه العقلية تتسع برؤية الأشياء من زواياها المتعددة ، إذ لا شيء يضيق الذهن غير رؤية الشيء من زاوية واحدة ...

* * *

لعل من أمتع الكتب وأنفع المطالعات التي أذكرها في صباهى ، ما كان للجاحظ في « المحاسن والأضداد » .. كتاب علمنى رؤية الشيء وضده .. ولم يزل باقيا عندى حتى اليوم بمجلدته القديمة ، وغليها بخطى وبالحبر القديم اسمى مع عبارة « سنة أولى فصل أول » ... من المدارس الثانوية بالطبع ... ولعل ملازمة هذا الكتاب لى طوال هذا الزمن ، إنما ليذكرنى دائما بدراسه الأول : إن لكل عملة وجهها الآخر ، وإن المعرفة

لا تتم إلا بالإحاطة بما نراه من الأشياء وما لا نراه ، ما نجه منها وما نكرهه .. لأن مزاولة المعرفة الشاملة لمختلف جوانب الأشياء هي الطريق إلى العلم بمفهومه الحديث .. ولا عجب إذا رأينا العلم بهذا المفهوم قد عرفته ومارسته الحضارة الإسلامية في ازدهارها الخلاق ، وقد وجدت فيها عقول فاحصة ، متحررة ، متحركة متفتحة على كل جوانب المعرفة ، مثل عقل إبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى .. إن كتابه « المحاسن والأضداد » ، ما هو عندي في حقيقة الأمر سوى نوع آخر من « الجدلية » جسدت ، ربما لأول مرة ، في نطاق الصور الأدبية ... لكن تبقى به بعد ذلك مهمة أخرى هي أنه يغرس في النفس الإدراك العميق بقيمة الجدل والحوار في صنع التفكير الإنساني في مجتمع مؤهل لبناء حضارى .

* * *

هذه الذكريات خطرت لى بمناسبة المقابلة التى تمت مع السيد الرئيس ، وشعرت منها أن البناء الحضارى الذى فكر فيه يقوم على هذه الصورة من الوحدة الوطنية التى لا عزل فيها ولا انعزال للآراء فى إطار الحوار المثمر الخلاق على المستوى العف الرفيع ..

الطعام لكل فم ..

قوة الشعوب

منذ نحو عشرين عاما ، أى فى سنة ١٩٥٧ ، نشرت كتابى « رحلة إلى الغد » ، وفيه تخيلت أن مجتمع المستقبل بعد ثلاثمائة سنة ، أى حوالى سنة ٢٣٠٠ ميلادية ، سوف يكون الغذاء كالماء .. ففى كل مسكن « حنفية » تصب الماء ، وإلى جوارها « حنفية » تصب اللبن .. وربما أخرى أيضا تصب الشاى أو القهوة ... حسب الطلب ... تخيلات !...

ولكننا نعيش فى عصر تتمخض فيه الليالى عن كل عجيبة ، ويكاد الواقع فيه يسابق الخيال .. ومن حسن الحظ أن بعض تخيلاتى تنقلب أحيانا إلى تنبؤات ، وأن هذه التنبؤات منها ما يصبح حقائق .. إذن لا بأس عندى من التخيلات والتخريفات .. فمن يدري ؟! لقد سبق أن تنبأت ونشرت فى الأربعينات كتابا قلت فيه بالنص : لا بد لمصر من « ثورة مباركة » بهذا اللفظ .. وفى عهد الملكية .. فجاءت بالفعل ثورة سنة ١٩٥٢ ، وقيل عنها « الثورة المباركة » ، بهذا اللفظ ذاته !.. إذن لو تخيلت اليوم أو تنبأت بقيام « ثورة غذائية » فى مستقبل الأيام ، على النحو الذى ذكرته فى « رحلة إلى الغد » ، وأصبحت حنفيات الماء فى البيوت تجاورها حنفيات اللبن والشاى والقهوة بالجنان .. هل يكون خيالى قد

شطح وعقل قد اختل ؟... من يدري ... ولكن . وآه من لكن ا..
ليس تحقيق الأحلام يمضى قدما .. فإن العقبات والمعوقات تتربص بكل
تقدم فى الطريق .. فشوارع الأحلام مثل بعض الشوارع مملوءة بالحفر ..
وإذا تمكن العلم الحديث بالكشف والتكنولوجيا من توفير الطعام لكل
فم ، فإن الاقتصاد الحديث أيضا ليس نائما ولا غافلا .. فلقد ذكرت
كذلك فى كتابى أن الاحتكارات العالمية الرأسمالية سرعان ما تحتوى هذا
الطعام الرخيص وتضعه تحت سيطرتها وتبيع فيه وتشتري .. وعندئذ
يكون أمامها سلاحان : الأول أن تجهض بسطوتها المشروع كله .. وهذا
فى رأى سلاح مفلول لأن قوة الشعوب الجائعة كفيلة بأن تجرف فى
طريقها هذا السلاح ... والثانى وهو الأذكى والأمر ، هو أن تتولى هى
بنفسها إنتاج هذا الطعام الرخيص الذى يمسك الرمح ويسكت أفواه
الجائعين ، ولكن بطريقة تمكنها من الربح ... وذلك على غرار التعليم
المجانى الذى يمنح للكافة ، ولكن من خلفه الدروس الخصوصية باهظة
الثمن .. وكذلك الطب المجانى الذى يفتح بابه للجميع ولكن من باب
خلفى العيادة الخاصة لمن يدفع الأجر .. فالاحتكارات سوف تصنع
كذلك فى الطعام ما تصنعه فى السيارة الفورد القديمة الرخيصة ، ولكن إلى
جانبا تصنع الفورد الفاخرة التى تبهى الناظرين وتغرى المستهلكين .. كل
هذه أسلحة وعقبات تحصنت بها الاحتكارات .. تخيلت وتنبأت كذلك
فى كتابى بأنها قد أزيلت بقوة الشعوب .

هل المستقبل للذكاء أم للذاكرة ؟

يقال إن الإنسان العصري قد لا يحتاج كثيرا إلى الذاكرة لأن الأجهزة الحديثة في التسجيلات والمسجلات والحاسبات والإلكترونيات ستكون في متناول يده وفي جيبه في كل وقت . ويقال أيضا إن الإنسان سوف يحتاج إلى الذكاء الذى يمكنه من استخدام هذه الذاكرة الآلية في الإبداع والابتكار. وعلى ذلك فقد يسمح في امتحانات الغد باستعمال المراجع والقواميس والكتب التى تحوى المعلومات المحفوظة وفي هذه الحالة لن توضع الأسئلة على أساس الذاكرة والحفظ ولكن على أساس الذكاء وكيفية استخدام هذه الأجهزة في الإجابات المبتكرة . فما هو رأى أصحاب الرأى في ذلك ؟

المفكرون وصورة المستقبل

قابلنى أستاذ فاضل ممن يعرفه الكثير من المثقفين بدراساته الرصينة وقال لى إنه فهم من مقال أخير لى فى موضوع « الحيات » أنه استبعاد للمفكرين المنظرين من حلبة الجدل والناقشة فى هذا الموضوع المهم الخطير الذى يتصل بمصير وطننا فى الحاضر والمستقبل . وإن هذا الاستبعاد لهذه الفئة المفكرة من الأمة قد يضيق من مجال الرؤية — ويحصر النظر فى نطاق زمنى محدود .. وكان ردى على هذا القول الصائب أن ليس إلى هذا ما قصدت . ولا أظن أحدا ممن يعرفنى يخطر بباله ألى ممن يرحبون أو ينصحون بأى استبعاد ... فأنا على العكس : مهمتى وواجبى الدعوة إلى توسيع مجال الرؤية والتفكير . ولقد رحبت وسعدت بكثير من المقالات المخالفة لى فى رأى ... وإنى لمن المعجبين بكلمة رائعة للشاعر المفكر « بول فاليرى » هى : « فلنملاً أنفسنا ثراء بخلافاتنا المتبادلة » ..

فالخلاف فى رأى ربما كان أكثر من الاتفاق فيه إثراء للعقل والنفس . ولكن أى خلاف ؟ .. إنه ولا شك الخلاف المحترم العف فى أسلوبه الغنى بمادته .. إذن أى استبعاد لخلاف ليس مما تقبله طبيعتى ولا مما أرضاه لنفسى . ولكن لعلنى كنت شديدا فى لهجة مقالى المشار إليه وأنا أدعو الأستاذ فكرى أباظة للمشاركة فى الجدل باعتباره المطالب علنا بهذا الحيات فى حفلة رسمية ، وأردت التهوين عليه بأن لا تكون مشاركته بأسلوب

التفلسف النظرى الذى زاد كثيرا فى المناقشة ، فحجب القضية الأصلية فى بساطتها واتصالها بموضوع الساعة : وهو التضامن العربى ... وآفة المناقشة المشتدة حول أى شىء كآفة الرياح المشتدة فى أى طريق ، تثير الغبار وتجعل العين مسددة على موطئ القدم خشية العثار . والطريق هنا هو الحل العلمى لقضية حالة هى انقسام العرب ودخول الإرهاب بديلا للكلام . حتى خاف كتابنا على حياتهم .. كل هذا والمناقشات تتجه إلى البحث النظرى بعيدا عن الحل العلمى .. ولعل من أسباب ذلك كلمة « الحياد » نفسها . فهى ذات مدلولات فقهية لا يمكن ذكرها بغير الخوض فى الدراسات الطويلة .. ولكن هل يمكن أن يكون قصدى الحقيقى هو إغلاق باب هذه الدراسات والبحوث ؟ أو ألى أريد أن نبدا الآن بالحلول العلمية ؟ أو ألى أريد على الأقل أن يسير الأمران معا جنبا إلى جنب ؟ مهما يكن من أمر فأنى أدرك بما لا يقبل شك قيمة التفكير النظرى فى إحداث الثورات أو التغييرات المطلوبة لأى وضع من أوضاع الدول والمجتمعات وما من تغيير إلا وقد سبقه تفكير ، ومن البحوث التى نشرت فى الصحف حول موضوع « الحياد » هذا ما يمكن أن يفيد فائدة كبرى فى التخطيط لصورة مستقبلية لوضع مصر والمنطقة العربية كلها .. وإذا رُئى أن هذا التخطيط ضرورى من الآن ، وأن فتح موضوع « الحياد » هذا هو فرصة سانحة لفتح باب النظر الشامل والبحث الكامل فى صورة مصر والعرب حاضرا ومستقبلا ، فإن هذا ولا شك عمل مجيد لم يكن فى الحسبان على هذا النحو وليس لنا إلا أن نطالب به كما نطالب به مصر والبلاد العربية بامتنان وشكر ..

هل أعدت خطة لبناء عقلى وروحى جديد ؟

من أين يبدأ البناء العقلى والروحى كما يراه رجال الفكر .. ما هو تصور كتابنا ومفكرينا لمستقبل العقل المصرى ؟ وما الذى تستطيع أن تقدمه أجهزة الثقافة والإعلام والتعليم والأحزاب فى عملية البناء ؟ نقطة البداية عند الدكتور زكى نجيب محمود أن مشكلتنا فى طريقة التفكير .. وأن الأساس الأول لعملية البناء فى تغيير أساليب التفكير نفسها بما يناسب روح العصر. وعند الأستاذ أحمد بهاء الدين أن الحرية أفضل وسيلة للبناء العقلى وهى كفيلة بتفجير طاقات الخلق والإبداع ... وهذه هى الآراء .

هل أعدت خطة أو تخطط للنمو العقلى والروحى للإنسان المصرى أسوة بالتخطيط الاقتصادى لنمو الثروة المادية فى الزراعة والصناعة والمعادن والسياحة ؟ ومن الذى يقوم بوضع هذه الخطة ورسم هذا التخطيط . هل هى وزارة التعليم أو وزارة الثقافة أو برامج الأحزاب أو كل در .. وما هى الملامح الرئيسية فى هذه الصورة التخطيطية للنمو العقلى والروحى للإنسان المصرى ؟ نحن نستطيع أن نخطط للرقعة الزراعية والمستوى الصناعى والثروة البترولية وللرواج التجارى والسياحى وغير ذلك من المجالات ولكن هل نستطيع أن نتصور وأن نحدد بالتقريب حالة المستوى العقلى والارتفاع الروحى وطرق تحقيقه للمستقبل ؟

— ٤٠ —

إن القضية كلها مرتبطة ببعضها البعض لأننا نريد ذلك الإنسان الذى
يستطيع النهوض بجدارة وكفاءة بأعباء العمل لتحقيق هذا التقدم الضخم
فى التنمية المادية والرخاء للملايين المتزايدة من السكان ولكن هل أعددتنا
خطة لبناء هذا الإنسان ؟
هذه هى القضية .

حول ثقافة مصر

كثر التساؤل حول إلغاء وزارة الثقافة ومغزاه وتطبيقه ونتائجه . وهو موضوع متسع للمناقشة أفضل أن يطرح في ندوة تجمع نخبة من المثقفين على هذه الصفحة . أما الذى أعرضه الآن هنا فهى ذكريات خاصة فى هذا الشأن . ففى العشرينات وفى الثلاثينات لم نكن نعرف أى اتصال للحكومة بأى أمر من أمور الثقافة ، فالمسابقات الأدبية كان الذى يمولها تبرعات الأفراد . وكذلك إنشاء الجامعة المصرية الأولى أى الأهلية والمجلات الأدبية والثقافية ، بل حتى جمع المخطوطات النادرة ونشر القواميس اللغوية ، كل ذلك كان يتسم بمجهودات بعيدة عن أى نشاط حكومى . إلى حد أن فكرت عندما كنت مديرا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف (التى تسمى اليوم وزارة التربية والتعليم) فى أن يكون للحكومة نوع من الاتصال الرسمى بالثقافة فقلت لو كىل الوزارة فى صيغة سؤال : وزارتنا تسمى وزارة المعارف فهل هذه المعرفة خاصة بما هو داخل جدران المدارس أم أن من الواجب أن تكون خارجها أيضا ؟ فلم يفهم السؤال ومغزاه فى أول الأمر وقال : ما هذا الكلام داخل الجدران وخارج الجدران ، إن عملنا هو فى المدارس فماذا تريد غير ذلك ؟ فقدمت له اقتراحا بإنشاء إدارة جديدة فى وزارة المعارف تسمى إدارة الثقافة لتتولى التثقيف العام للشعب خارج نطاق المدارس . كان ذلك فى الثلاثينات ،

وأنشئت بالفعل بعد ذلك وعين فيها طه حسين بعد إخراجهم من الجامعة كما عين فيها أحمد أمين. وكنت أنا قد انتقلت إلى وزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٣٩ التى كنت قد أوحيت بإنشائها فى مقال قيل إنه سياسى وعوقبت عليه بخمسة عشر يوماً من مرتبى بعد أن خففت العقوبة التى كان مقرراً لها الطرد من الحكومة . عينت فى إدارة جديدة بالوزارة الجديدة فى وظيفة مدير لإدارة الإرشاد تضم المسرح والسينما والراديو والموالد ونحو ذلك وحصلنا على سيارتين كبيرتين فيهما تسجيلات لنشر الدعوة الصحية والإرشادات الزراعية والثقافية كى تجوب القرى، كان الإشعاع الفكرى والإنتاج الأدبى والفنى والاهتمام الثقافى فى العشرينات والثلاثينات فى يد الناس والمجتمع .. وكانت وزارة الثقافة الحقيقية هى « المثقفين » أنفسهم . وكانت النهضة الفكرية والإبداعية التى قامت فى العشرينات والثلاثينات — وهى الأساس لما جاء بعدها — من صنع أهل الفكر والفن والثقافة . وليست من صنع الموظفين، ولذلك كنا نشعر بمسئوليات كبيرة تقع على عاتقنا معشر المثقفين فى ذلك العهد . ولم يخطر ببالنا قط أن نلقى بهذه المسئوليات على كاهل الحكومات أو أن ننتظر منها شيئاً سوى أن تترك لنا الحرية الضرورية للتعبير ولإنعاش الفكر ونمو الإبداع . واليوم ونحن نتهاً بعد السلام لوثبة جديدة نحو نهضة ثقافية كبرى جديدة بالعهد الجديد كيف يكون الحال ؟ إن مصر اليوم لم تعد مثل مصر الثلاثينات حيث مكنت القيادات الثقافية من عملية وأدبية وفنية — دون سند من حكومة أو بحسن اختيارها — من القيام بأعباء النهضة ونشر الإشعاع الفكرى الحضارى فى المجتمع الخارج من ثورة ١٩١٩ ... إن

مجتمعنا اليوم قد تولت قيادته الثقافية الأجهزة الفعالة المتسربة في كل بيت وكل جيل من الترانزستور والكاسيت والمرثيات الملونة وغير الملونة مما ليس له في الأغلب علاقة بثقافة ولا يخضع لأى تخطيط فعال يرمى إلى أحداث نهضة حقيقية ... فهل إذا مكنت القيادة الفكرية وأحسن اختيارها للقيام بأعباء النهضة الثقافية ، وأتيح لها النفاذ الفعال إلى الأجهزة الإعلامية لإحداث النهضة المنتظرة يمكن أن يدعونا ذلك إلى التفاؤل بالمستقبل ؟ هذا ما سوف تكشف عنه الأيام ...

دعونا نتعلم كيف نفكر

ليس مصادفة أن يقوم في ألمانيا فلاسفة مثل كانت وهيغيل وماركس وعلماء مثل أينشتاين وماكس بلانك وموسيقيون مثل بيتهوفن وفاجنر ، كل منهم في مجال أبرز سماته عمق الفكر ... فالصلة بين الفلسفة والعلم والموسيقى الرفيعة أمر معروف ... الفلسفة الألمانية والموسيقى الألمانية هي خير ما أنتج في ألمانيا ... وجامعات ألمانيا القديمة في القرون الوسطى قامت نهضتها الفكرية فيما قامت على فلاسفة العرب من أمثال ابن رشد وابن سينا والفارابي ...

بينما نحن في العصور الحديثة بعد هذا الزمن الطويل من القرون الوسطى لا يعرف تلاميذنا نماذج من تفكير فلاسفتنا العظام الذين كانوا من بين الأسس التي ساهمت وقام عليها صرح هذا المجد الفكرى والفنى الألمانى والعلمى .

وليس معنى التفكير إهمال التحصيل . فالتحصيل هو المادة التى يجب أن تجمع وتحفظ لتكون بعد ذلك موضع التفكير فتفكير بلا تحصيل مثل طاحونة بلا مطحون . فجهاز التفكير هو طاحونة والطاحونة العاطلة لعدم وجود المحصول الذى تطحنه لا فائدة منها . كذلك الطاحونة الخربة أو المعطلة التى تضع فيها المحصول فلا تتحرك لطحنه وتتركه كما هو فإنها لا نفع فيها أيضا . كذلك حشو الطاحونة وإتخامها بمحصول زائد يسد

تروسها ويعطل حركتها فإن ذلك أيضا يعرقل النفع والفائدة .
تعطيل طاحونة التفكير والاجتهاد حدث في بلادنا بفعل الغزو
الأجنبي . لقد كان الأزهر عندنا دارا للحكمة . وكانت طاحونة الفكر
تعمل باستمرار وتخرج العلماء الراسخين في علوم الفلك والمنطق
والرياضيات والتفسير إلى جانب الحفظ والتحصيل . فوجد الغزاة الخطر
في الأزهر المفكر لأنه ينتج العلماء والمفكرين والزعماء وقادة الشعوب
الذين يحركون في الناس الفكر الحر وينشرون النور . وهذا خطر على
الطغاة المحتلين . وظلوا بالأزهر حتى قضوا على ما فيه من ابتكار وتفكير
 واجتهاد وتفسير ، وحبسوه في نطاق الحفظ ولا شيء غير الحفظ . نحن
ندعو قبل كل شيء إلى دراسة الموضوع دراسة جدية شاملة في المجالس
المتخصصة مع مشاركة الرأي العام المستنير في هذه القضية الخطيرة . ثم
مراجعة برامج الدراسة الثانوية على الأخص . لإعادة تركيب وتحريك
الطاحونة المفكرة الخربة المعطلة . وذلك بإجراء التعادل الدقيق بين مواد
الحفظ ومواد الفكر . وأن يراجع نظام الامتحانات فيجعل قسم من
الامتحان في طريقة الفكر الشخصي والتناول والمعالجة وذلك بأن توضع
الأسئلة ومعها في حجرة الامتحان الكتب والمراجع في متناول الطالب أو
أن تكون ورقة الأسئلة ذاتها « حاوية » للمعلومات لينتفع بها الطالب وأن
تكون الإجابة الجيدة ليست على ما في الكتب أو ورقة الأسئلة ذاتها من
معلومات ولكن على مدى التفسير والتفكير حول هذه المعلومات
الموجودة فعلاً أمام الطالب لمعرفة كيف استطاع الطالب أن يظهر أسلوبه
الشخصي في التفكير والمناقشة والتفكير والتناول للقضايا التي تطرحها

الأسئلة . بمعنى آخر أن يكون الامتحان قسمين : قسم نطلب فيه من الطالب المعلومات التي حصلها وحفظها . وقسم نعطيه نحن المعلومات ونطلب منه تفكيره الشخصي حولها . وكل هذا يستوجب الحل الجذري وهو تعديل أساليب وبرامج التعليم . أما اللغة العربية وتعليمها هي الأساس فلا ينبغي أن يترك اختيار النصوص والمواد المدرسي اللغة وحدهم لأن الموضوع أكبر وأوسع وأعمق من مجال تخصصهم العادي . بل أن يكون للمجالس المتخصصة في فروع العلم المختلفة رأى في كل ذلك . وهذا الموضوع الخطير يجب على كل حال أن يطرح للمناقشة العامة على الرأى العام كله .

فى المفكر وطريقة التفكير

من الكلمات التى يطلقها بعض الكتاب بغير تحديد كلمة فكر وتفكير ومفكر ... ولذلك حسب هذا البعض أن كل من كتب فى موضوعات سياسية أو اقتصادية أو فلسفية بلغة رزينة أو أسلوب محشو بالتعريفات أو الإحصاءات أو مرصع بالعبارات التى توحى للقارئ البسيط بعمق الكاتب وسعة اطلاعه وشمول ثقافته فيضفى عليه لقب المفكر . مع أن عمله هو أنه ناقل جيد ذكى لفكر الآخرين بالترجمة أو التلخيص أو العرض .

وقد يكون هذا صحيحا لو كان المقصود بالمفكر هنا هو المشتغل بشئون فكرية ، فيقال إنه من رجال الفكر ، كما يقال عن المشتغل بشئون المال إنه من رجال المال أو الأعمال ، وكما يقال عن المشتغل بشئون الدين إنه من رجال الدين . وهكذا ... أما المفكر الذى يلم بكل أوجه النشاط الفكرى الإنسانى ويخرج من ذلك يتفكيره الخاص المميز ، الذى لا يمكن رده إلى فلسفة بعينها فهو المفكر بالطبيعة ، سواء كان تفكيره داخل منهج أو خارجه .. وهنا يختلط على البعض التفريق بين المفكر المنهجى والفيلسوف .. فالمفكر المنهجى غير الفيلسوف . لأن الفيلسوف لابد أن يكون منشأ النظرية فلسفية تقوم بالضرورة على منهج فكرى .. ويظهر الفرق جليا بين رجلين على مذهب واحد : فمثلا كارل ماركس فيلسوف فى عرف المبادئ الفلسفية التى كنا ندرسها فى أوائل العشرينيات بفرنسا حيث كان برنامج الدكتوراه يبدأ من أرسطو إلى ماركس . لأنه المنشئ للنظرية مكتملة فى

بناء شاخ محمد الأركان ، في حين أن « لينين » بمؤلفاته من « المادية ونقد الإمبريالية » إلى « الدولة والثورة » لا يصنف على أنه فيلسوف ، بل على أنه من أهم المفكرين والمنظرين للماركسية .. كذلك يجب أن التمييز بين المضمون والأسلوب في المنهج الفلسفي . فعند فيلسوف مثل نيتشه نجد أن مضمون فلسفته القائم على الطاقة الحيوية كمنبع للأخلاق وأن الإنسان يجب أن يغير نفسه ليصبح « السوبر مان » عن طريق « إرادة القوة » وأساسها « الفردية » .. هذه الفلسفة وضعها في أسلوب شاعري يخطف الذهن والخيال بريق ساطع .. في حين أن « سارتر » الذي يصنف على أنه فيلسوف وكاتب روائي ومسرحي يفرق تماما بين أسلوبه في كتابة مضمون فلسفي مثل « الوجود أو الكينونة والعدم » حيث الأسلوب جاف شاق ، وأسلوب رواياته ومسرحياته السهل الشيق ... والأمر على هذا النحو في تراثنا العربي . فاللغة العربية الواحدة تتخذ أسلوبين مختلفين تبعا للمضمون فهي جافة عسيرة عند فيلسوف مثل « ابن رشد » قرأتها بمشقة في كتابه : « الكشف عن مناهج الأدلة » وقت ما كنت أبحث في طريقة التفكير عند فلاسفتنا العرب ، وهي نفس المشقة التي صادفتني عند مطالعة « الإلهيات » لابن سينا ... ولكن هذه اللغة نفسها تنقلب حية بالصور الإنسانية والاجتماعية عند كاتب فنان مثل « الجاحظ » .. ولكن ما هو « المنهج » الذي تتكلم عنه في التفكير ؟ عند الفيلسوف هذا واضح . وعند الجامعي الذي يمارس إعداد الرسائل الجامعية واضح أيضا .. ولكن عند مفكر كالعقاد لم يكن فيلسوفا ولا جامعيا هل كان له منهج ؟ وكيف كان منهجه .. ربما أمكن معرفة ذلك من مقارنة دراسته

عن « ابن الرومي » بدراسة جامعي كطه حسين عن « أبي العلاء » .. وأعتقد أن خير من يحكم في هذا صديق العقاد والأرسخ منه قدما في أرض الفكر المنهجي والفلسفي الدكتور زكي نجيب محمود .. على أن من الممكن أن يكون المقصود من كلمة « المنهج » هو كالمقصود من كلمة « مفكر » تطلق بغير تحديد .. وتؤخذ على أنه طبيعة التفكير والسلوك في ممارسة الحياة . وبهذا يمكن تصنيف العقاد على أنه ينتمي إلى « الفردية » النيتشوية وليس إلى الجماعية « الماركسية » . فهو يعيش وحيدا بلا زوجة ولا أولاد ، وهو معتمد بنفسه مؤمن برأيه وتفوقه .. ولذلك هو في كتاباته وخاصة « العبقریات » يتخذ موقف المحامي عن موكله بثبات وعناد ، وليس موقف القاضي الذي يبحث عن الحق أينما كان ، ويتشكك ويتنقل بين رأى الاتهام ورأى الدفاع بحثا عن الحقيقة في ذاتها .. والمحامي العنيد يريح زبائنه كما يريح المفكر المنهجي نقاده ، لأنهم يعرفون خط سيره من أول الأمر حتى النهاية . أما القاضي فمتعب ومحير ، لأنه في بحثه الطليق عن الحق والحقيقة لا يعرف أحد أين سينتهى به الطريق ، فربما يأتي في آخر لحظة شاهد أو دليل يغير اتجاه رأيه ، وكذلك المفكر الحر يتعب نقاده لأنهم لا يعرفون مقدما أين يقف بحثه غير الموجه بخط ثابت .. فمن يقرأ لكاتب حر مثل « أندريه جيد » كتابته قبل زيارته للإتحاد السوفييتي مثلا يجدها مغايرة لما كتبه بعد الزيارة .. ولذلك يتعين معرفة أساليب التفكير قبل مواجهة المفكر .. وكل أسلوب له مزاياه ومساوئه .. مثل طبائع (تحديثات سنة ٢٠٠٠)

— ٥٠ —

الإنسان ... فهناك من يفضل الفكر الثابت على فكر ومنهج . وهناك من يرى في الثبات أن الحقيقة عندئذ ستكون مجمدة في قوالب من حديد .. وهناك من يرى العكس .. والمهم هو أن لا نفصل صفة « المفكر » وتفكيره على فئة بالذات .. فكل المراكب مفيدة في بحر الحقيقة الواسع ..

الفرق بين تقديم السمكة : وصيد السمكة

يجب نقل التعليم من مرحلة الحفظ إلى مرحلة الفكر . لأن الحفظ معناه نقل الشيء كما هو وتخزينه واستعماله كما هو . وهذا ما يجعلنا دائما ناقلين لما فكر فيه غيرنا ونتجه بدون أن نفكر نحن ونخلق ونتج ، وبداية هذا عندنا هو التعليم الذى يقوم على الحفظ وليس على الفكر وعلى النقل وليس على الخلق . نحفظ النصوص ونتقبل المخترعات عن غيرنا ولا نعرف كيف نفكر . لأن الخلق لا بد من أن يسبقه فكر . إذن لا بد من ثورة تعليمية شاملة . تبدأ من اللغة وتعليم اللغة .

* * *

هذه الثورة التعليمية التى تنقلنا من الحفظ إلى الفكر هى التى تنقل حضارتنا من حضارة استهلاكية لمنتجات الحضارة الإنتاجية التى يقوم بها غيرنا .

قال المثل الصينى المعروف : بدل أن تعطى أحد سمكة علمه كيف يصطاد السمك . لأن بإعطائك السمك سيجعله دائما محتاجا إليك . أما تعليمه كيف يصطاد هو وينتج السمك فهو الذى يحرره دائما من مد اليد إلى الغير ، كذلك الحال إذا كان التعليم هو إعطاء تفكير الغير فقط . أما إذا كان التعليم هو أن المتعلم يصطاد بنفسه الفكر وينتج التفكير فإنه يصبح

منتجا ويدخل في نطاق الحضارة المنتجة وليس الحضارة المستهلكة .

* * *

التفكير في أبسط صورة مثل طعام تجهزه بنفسك بأن تفحص موادها وتنقيها وتحللها وتنسقها وتنضجها . وهو على نقيض الطعام المحفوظ في العلب الذى تزدرده جاهزا . ولذلك عندما تنعدم في فرد أو شعب قدرة التفكير فإنه يزدرد الأفكار الجاهزة التى يقدمها له الغير دون تفكير أو تحليل وهى مرتبة بدائية فى الإنسان تكاد تقترب به من الحيوان الذى يلتمس الطعام الذى يقدم له أو يصادفه دون أن ينقيه أو ينظر فيه . وكذلك فإن التعليم عندنا عن طريق النصوص المحفوظة دون تعريضها للتحليل والمناقشة والنقد والمراجعة هو أيضا من أسباب تأخير التدريب على تحريك العقل والفكر عند الطالب .

عرفت أستاذا فى التعليم الثانوى منذ ستين عاما . كان فلتة من الفلتات وكان عائدا لتوه من الخارج كان يقول : لا تأخذوا دروسى وأفكارى على أنها آراء منزلة صائبة دائما . بل عليكم أن تناقشوها وتفندوها وقد أكون مخطئا . وأكون سعيدا وناجحا إذا جئتم بأفكار مقنعة تخالفنى . لأن المهم ليس حشو رؤوسكم بمعلومات ستطير غدا . ولكن الأهم هو أن تحللوا أفكارى وتقدموا بأفكار من عندكم تؤيدها أو تناقضها . المهم دائما هو أن يتحرك فكركم مع فكرى وعقلكم مع عقلى .. وهذا التحريك للعقل والفكر هو القيمة الباقية والكسب الدائم . أما المعلومات فسادلكم على المصادر والمراجع التى أستقى منها لتراجعونى بأنفسكم وإلى الكتب والمراجع التى تخالفنى لتنظروا فيها كذلك .

مدينة العلماء

أثلج صدرى خبير نشر فى الصحف عن مدينة للعلماء تقرر إنشاؤها فى ليبيا تضم أحدث الأجهزة العلمية فى العالم وسرعان ما انفتحت أمام خيالى رؤية مثألفة . ماذا يحدث لو تطلع عالم الحضارة اليوم إلى ليبيا العربية فوجد فيها أعظم ما ينفع الإنسانية : أكبر مستشفى فى العالم يجمع أشهر الأطباء والعلماء العالميين فى فرع من فروع البحوث المتقدمة وتجربى فيه التجارب وتولد الاكتشافات . كذلك لو تطلعت الدنيا فوجدت فى بلد عربى أهم معهد أبحاث لاستخراج الطعام من بروتينات البحار للقضاء على الجوع الجاثم على صدر الأرض . إن إنفاق الملايين فى هذا السبيل سيجعل اسم هذا البلد العربى على كل لسان ، وسيجعل اسم العرب وكلمة عربى لها من الرنين الجميل فى العالم المتحضر ما يمحو أوصاف الهمجية التى يسعى أعداء العرب الآن جاهدين فى إلصاقها بالنفوس وترسيخها فى الأذهان . سيعود عندئذ اسم « الحضارة » مقترنا فى أروبا باسم العرب كما كان فى أيام الرشيد والمأمون .

ولن يقتصر هذا الفضل على المجال الإنسانى العام ، بل سيكون له أكبر الأثر فى المجال القومى الخاص ، فإن إنشاء هذه البيئة العلمية العالمية فى أرض عربية سيمهد لأبناء الوطن العربى كله من طلاب وعلماء أيسر الطرق للتعليم والتدريب والنشاط العلمى إلى جوار الجهابذة العالميين .

ومع ذلك فإن الملايين التي ستنفق في هذا السبيل قد تعود بأضعافها من
حصيلة الوافدين على هذه المدينة العلمية العالمية من طلاب وعلماء وزوار
وسائحين بما كانت مدينة الإسكندرية منار علم تشع على الدنيا في مرحلة
من مراحل التاريخ ستكون هذه المدينة في ليبيا أو غيرها مركز إشعاع على
البحر الأبيض وأوربا والعالم على مدى أجيال . إنها لخدمة جليلة للعروبة
ومجد للعرب أرجو أن تتحقق في ليبيا أو في أى بلد عربى يملك القدرة .

عودة الشباب

سئلت أثناء وجودى الأخير فى باريس هذا السؤال : إذا أردت أن تكتب اليوم من جديد « عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » .. كيف تكتبها ؟

سؤال يبدو كتلك الأسئلة السطحية التى تلقى علينا من حين إلى حين لمجرد التسلية أو التفكهة ، ولذلك لم آخذه كثيرا على سبيل الجد .. ولكن عندما خلوت إلى نفسى وأمعنت النظر فى السؤال وحاولت الإجابة وجدت تفكيرى قد طرق أبوابا وتخطى أعتابا ودخل فى دهاليز طويلة من أزمنة وعهود . وذلك شأن الأسئلة التى تبدو بسيطة بديهية فإذا عرضناها على التفكير والتحليل ظهرت أغوارها البعيدة . مثل السؤال عن : ما هو الماء وما هو الهواء ؟ .. فالإجابة الدقيقة عن المسائل الأدبية ومؤلفاتها تقتضى أيضا التحليل العلمى أى الموضوعى للظروف التى نشأت فيها . والتحليل العلمى يستند دائما على كلمة واحدة هى « لماذا » أى السبب ويستبعد كلمة « يجب » أى الرغبة . فعندما نلاحظ مثلا أن قلب الإنسان علميا فى الجانب الأيسر فإن الكلام يكون علميا موضوعيا إذا قلنا « لماذا » هو كذلك . وهو يكون بعيدا عن الأسلوب العلمى إذا قلنا « نرغب » أو نود لو كان فى الجانب الأيمن . وهذا أمر صحيح بديها فى مجال « العلم » الباحث عن الحقيقة . أما فى مجال الأدب والفن ، فإن

الخلط لم يزل موجودا ولذلك لا بد من التفريق الواضح بين الناقد والباحث . فالناقد وخاصة إذا كان النقد صحفيا أى موقوتا بزمان محدد ومكان معين له أن يقول أرغب وأود وأفضل ، أى نلجأ إلى أسلوب شخصى أو توجيهى أما الباحث وخاصة إذا كان البحث موقوتا بالحاضر المباشر أى بأشياء وأعمال استقرت فى التاريخ الأدبى أو الفنى أو الاجتماعى فإن أسلوب الرغبة أو التفضيل أو التوجيه أى الأسلوب الشخصى يصبح لا محل له ولا مبرر ، ولا بد عندئذ من استخدام أنماط الأسلوب العلمى الموضوعى التحليلى . أى لماذا ؟ .. كان الأمر كذلك ؟ ..

* * *

وهذا التفريق بين الأسلوبين والمهتمين يجب أن يكون واضحا فى أذهاننا عندما نواجه القضايا الأدبية والفنية والاجتماعية . من أجل هذا كانت الإجابة الدقيقة الجادة عن ذلك السؤال المتعلق بمؤلفاتى القديمة والتي نشرت منذ أكثر من أربعين عاما تقتضى منى استخدام الأسلوب الموضوعى التحليلى أى السؤال بكلمة « لماذا » ؟ لماذا كان الأمر كذلك ؟ ولماذا كتبت هذه المؤلفات أصلا ؟

* * *

ثم لماذا كتبت على هذا النهج ؟ وكما هو الحال فى دراسة القلب مثلا ووجوده فى الجانب الأيسر فإن علينا أن ندرس أسباب هذا الوجود أولا وضروراته ومهمته ونشأته واتصاله ببقية الأعضاء والأجزاء . فإذا صنفنا العمل الأدبى على أنه رواية أو مسرحية فمن واجبنا إذن أن نحلل الظروف التاريخية والأدبية والاجتماعية التى اقتضت ظهور هذا العمل فى ذلك

الزمان والمكان ، بصفته التى ظهر بها . ذلك أن الأدب أو الفن إذا كان صادقا فلا بد أن يكون وجوده بالصفة التى ظهر بها مرتبطا بضروريات التطور الحضارى للبيئة التى وجد فيها .. فما هو التطور الحضارى الذى كان قائما عند ظهور تلك المؤلفات القديمة ؟ ..

يجب إذن أن نحلل حالة مصر فى عشرينيات هذا القرن . وهذا عمل يطول شرحه . ويحتاج إلى دأب وتخصص وتفرغ ، ومكانه فى رسائل الجامعات ودراسات أساتذتها وبحوث المؤلفين والنقاد الجادين . ولكن يكفى هنا أن أشير إشارة سريعة إلى ما علق بذاكرتى فى هذا المجال .

فمصر فى عشرينيات هذا القرن كانت خارجة من ثورة ١٩١٩ . وقد جاءت هذه الثورة على إثر مطالبتها المحتل البريطانى باستقلالها . ذلك أن مصر كانت تابعة اسميا للدولة العثمانية ، وإن كانت عمليا خاضعة للاحتلال البريطانى فلما قامت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ وانحازت الدولة العثمانية إلى جانب أعداء بريطانيا ، وكان حاكم مصر الخديوى عباس الثانى قد ذهب إلى اسطنبول للاستجمام وإظهار الولاء للباب العالى العثمانى ، كما كانت العادة فى ذلك العهد ، فقد اعتبرته السلطات البريطانية المحتلة منحازا هو أيضا إلى أعدائها ، وقامت بوضع مصر كلها تحت حماية بريطانيا العظمى رسميا طالما الحرب قائمة وانتهت الحرب فى أواخر عام ١٩١٨ فكان من الطبيعى أن تسأل مصر عن مصير الحماية البريطانية وعن وضعها السياسى ، بعد هزيمة الدولة العثمانية فى هذه الحرب واستفسرت بريطانيا عن معنى السؤال وعما تريده مصر بعد رفع الحماية البريطانية ، هل تريد العودة إلى التبعية العثمانية ؟ وهنا أعلنت مصر صراحة عن أميتها

ورغبتها في عدم تبعيتها لأحد ولا لجهة . إنما هي تطلب الاستقلال التام . فلما رفضت بريطانيا ثارت مصر ثورتها ، وحاول المحتلون والخصوم إقامة العراقيل المعروفة بزعمهم أن في مصر طوائف وأقليات دينية تقتضى الحماية ، ولكن مصر أثبتت بالفعل وحدة مصر المتينة ، وأن مصر هي كلها مصر ، ولا يوجد في مصر غير كتلة واحدة هم المصريون الذين لم يعرفوا في تاريخهم الطويل أى تفريق أو تمزيق بسبب اختلاف في الدين ، وعائق الهلال الصليب في راية واحدة مرفوعة في وجه المحتلين . وذهل المحتل البريطاني ولكنه جعل يشكك متجاهلا متسائلا :

* * *

وما هي شخصية مصر وهذا الشعب الذى يسمى بالمصريين ؟ .. وعندئذ كان على الفكر والأدب والفن في مصر الإجابة عن هذا السؤال .. وأخذ كل في مجاله البحث عن كيان مصر والتنقيب في جذورها والكشف عن شخصيتها ، فظهرت المحاولات العديدة في الفن والأدب والفكر والسياسة والاقتصاد لتجلية الشخصية المصرية المستقلة وإبراز معالمها وملامحها . وأخص بالذكر هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر ما كان منها متصلا اتصالا مباشرا بالإدارة المتعمدة المباشرة لربط مصر بجذورها القديمة .

* * *

مثل تمثال « نهضة مصر » لمختار ، ولحن سيد درويش ، أنا المصرى كريم العنصرين بنيت المجد بين الأهرامين ، وعودة الروح مصدرة بعبارة من « كتاب الموتى » لمصر القديمة انهض انهض يا أوزوريس أنا ابنك

حوريس جئت أعيد إليك الحياة ، الخ الخ .

* * *

وقد فهم البعض خطأ أنها دعوة إلى الفرعونية ولم يكن الأمر كذلك مطلقا . إنما كان المقصود هو نفخ التراب عن الشخصية المصرية لإظهار ملامحها المميزة وكيانها المستقل في وقت ينكر فيه الخصوم والمحتلون حقها في الاستقلال .. وشخصية مصر أو غيرها من البلاد والشعوب والأمم تمثل شخصية الفرد الواحد .. فمعرفة شخصية فرد تقتضى تتبع مراحل عمره منذ وجوده على الأرض . فمن يزعم أنه يستطيع أن يعيش بشخصية كاملة التكوين يحذف مرحلة من مراحل وجوده وتاريخه بإلغائها من ذاكرته ، فإن هذا الفرد فاقد الذاكرة والوعي لجزء من تاريخ وجوده يُعتبر في نظر الطب مريضا عقليا .. كان إذن شغلنا الشاغل في ذلك العهد هو إبراز شخصية مصر المتكاملة بذاتها في وقت كان الأعداء فيه والمحتلون ينكرون هذه الشخصية إلى حد كان تمثيل مصر السياسى أمام العالم يقوم به عنا سفير إنجليزى ، ولم نتخلص من هذا الوضع الظالم إلا بعد ثورتنا عام ١٩١٩ وإرغامنا المحتل أن يعترف بشخصية مصر فأنشئت عندئذ السفارات المصرية مستقلة عن تلك السفارات البريطانية .. إذن كان من الضرورى والطبيعى أن يكون الفكر والأدب والفن في هذه المرحلة وهذه الظروف مرددا ومؤكدا للشخصية المصرية بطريق مباشر أو غير مباشر ..

ولكن كان من نتيجة هذا الغوص والتنقيب عن جذور الشخصية المصرية والاهتمام بماضينا ونفخ التراب عن أصوله أن فهم خطأ أيضا أن

المقصود هو بعث الماضي بكفائه ليعيش بيننا كما كان في سالف الأزمان ..
وظهر بيننا السلفيون والرجعيون الذين يريدون العودة بعجلة الحياة إلى
الوراء . وهنا كان من الطبيعي والضرورى أن ينشأ فى الأدب والفن فى
تلك الظروف عمل مثل أهل الكهف يمثل أهل الماضى وقد بعثوا فى مجتمع
جديد ليعيشوا فيه بأفكارهم القديمة ومشاعرهم السالفة فلم يجدوا مكانهم
فى هذا المجتمع الذى اعتبرهم أشباحا ولم يقبلهم كمعاصرين معاشين بل
كتراث تنظر إليه باحترام وتبجيل دون أن يُسمح له بأن يتدخل فى حياتهم
بنظرة ومثله القديمة فيعزل إنطلاقة الحياة وتطورها .. إذن لم يكن اختيار
قصة أهل الكهف بالذات من بين قصص القرآن اختيارا عفويا غير ملتزم
وإلا كانت قصة يوسف مثلا أكثر إمتاعا ، ولكن الاختيار هنا لأهل
الكهف كان اختيارا طبيعيا عضويا ومرتبطا بقضية مجتمع فى حالة تجديد
فكرى وتطور حضارى .

ثم دخلنا فى أواخر الثلاثينيات وقد تبلورت شخصية مصر واستقرت
فى الأذهان ، كما ظهر بوضوح اتجاه التجديد الفكرى والتطور الحضارى
عندنا بالنظر الجاد المدروس فى تراثنا القديم واستخلاص كنوزه الخالدة ،
وعرضها فى الأتواب الملائمة للعصور الحديثة ، على ضوء مناهج البحث
الجديدة ، واستلهاهم روح التراث وجوهره لتجسيده فى قوالب معاصرة .
وعندئذ ظهرت قضية أخرى هى قضية الشرق العربى كله وحضارته
الأصلية فى مواجهة الحضارة الأوروبية السائدة ، فكان من الطبيعى
والضرورى كذلك أن ينشأ فى الأدب والفن الروائى فى ذلك الوقت عمل
مثل « عصفور من الشرق » يطرح القضية من وجهة نظر الشرق فى

مواجهته لحضارة أوروبا . ولم تكن هذه أول مرة تحدث فيها هذه
المواجهة ، فقد سبق أن حدثت في القرن الماضي لرفاعة الطهطاوى . مع
هذا القارق وهو أن رفاعة الطهطاوى واجه الحضارة الأوروبية ،
ومصر لم تكن قد استيقظت تماما ولم يكن الوعي لشخصيتها قد تبلور
تماما ، وكذلك الشرق العربى كله بينما كانت أوروبا في ذلك القرن التاسع
عشر في أوج عزتها وسلطانها الحضارى الذى لم تشبه بعد شائبة شك . أما
« عصفور من الشرق » فقد ظهرت ومصر قد بلورت شخصيتها وعرفت
اتجاهها الحضارى ، بينما أوروبا وقد خرجت من الحرب العالمية الأولى
جريحة مضعضة ، بدأت تشك في مستقبل حضارتها كما ظهر في كتابات
الكثير من مفكرها .. وكانت هذه هى القضية المطروحة وقتئذ أمام
الشرق العربى : « ما دام الأمر كذلك في الغرب نفسه فماذا نأخذ منه
وماذا ندع ؟ .. » وكان على رواية « عصفور من الشرق » عرض القضية
لا في صورة محاسن أو مساوئ بغير حدود لكل من الحضارتين الشرقية
 والغربية ، ولكن في صورة المحاسن والأضداد لكل منها بروح العدل
والإنصاف ، لا بروح المحاباة المغممة أو التحامل المرير على قدر الإمكان ،
إذا كان أيضا على الأدب والفن في ذلك الوقت رفع الروح المعنوية لمصر
الشارعة في النهوض « وعودة الروح » إليها ، وللشرق العربى وحضارته
المتخاذلة أمام الحضارة الأوروبية الساحقة ..

* * *

والآن نعود إلى السؤال المطروح : إذا أرت أن تكتب من جديد
« عودة الروح » و « عصفور من الشرق » و « أهل الكهف » كيف

تكتبها ؟

* * *

لعل الصعوبات تبدو الآن واضحة بعد أن عرفنا تلك الخلفيات والأرضيات التي نبتت فيها تلك الأعمال . ذلك أن عبارة السؤال « تكتب اليوم من جديد » معناها البحث أولا عن الأرضية الجديدة هذا من حيث « المضمون » . ولكن عبارة « كيف تكتبها » تحمل أيضا معنى البحث في « الشكل » .. وكما أن المضمون له خلفية وأرضية ، كذلك الشكل . فأصالته هو أيضا تأتي من تطوره المرتبط بتاريخ النوع وبيئته الأدبية والفنية ومن طبيعة الأديب والفنان ، ومن جو بلاده صافيا كان أو غائما ومن جغرافيته جبليا كان أو سهلا ، صحراويا كان أو مكتنفا بالغابات .. ولقد كنت في باريس يوم ولدت السورالية وظهرت المذاهب الروائية الجديدة التي تتسم بالتعقيد أو بالأغراب ، كما أضنانى التفكير والبحث عن أسلوب لي ، وانتهى بي الأمر إلى أن الأسلوب في الفن مثله في المشي . ومن تكلف أسلوبا خاصا في مشيته تعثر ، ومن ترك نفسه على طبيعته سار . ولذلك لم ألتفت إلى المذاهب والأساليب عندما شرعت في الكتابة ، وأمسكت بالقلم وتركت طبيعتي تقودني ... هذه الطبيعة التي تمتد جذورها في الأرض والبيئة والتاريخ والجو ونحو ذلك من المكونات لوجودنا ، دون أن أتعمد تذكر كل ذلك ساعة الكتابة وإلا انحرفت إلى التكلف . يجب أن أمشي مشيتي الطبيعية وكفى إلا أن أذكر وأضعه في حسابي وتخطيطي ساعة المشي ، وإلا أصبح المشي كله عملية متصنعة تدعو إلى السخرية .. إذن لو كتبت تلك الأعمال القديمة من

جديد اليوم فإنى أعتقد من حيث « الشكل » أنى لن أغير هذا المنهج : وهو ترك طبيعتى تقود قلمى .. وليس معنى هذا إنكار التطور أو التجديد ، فالطبيعة نفسها تطور دائم وتجديد مستمر .. حتى فى وظائف الأعضاء وخلايا الجسم .. وطبيعتى الخاصة بالذات تبغض الجمود وتحب التجديد .. ولكن هناك فرقا كبيرا بين التطور الطبيعى وتكلف التطور ، وبين التجديد الذى تحتمه ضروريات تاريخية واجتماعية وفنية وبين التجديد الذى تدفعه نزعات مظهرية وتظاهرية ..

من حيث « الشكل » إذن لا توجد بالنسبة لى مشكلة . أما من حيث « المضمون » فسوف أجد نفسى أمام مشكلات معقدة . فالأرضية هنا اليوم ليست ثابتة . فنحن فى أوائل القرن كنا أمام قضايا واضحة . ليست لمصر وحدها ولا للشرق العربى وحده ، ولكن للعالم كله . ومنذ نصف قرن أى بعد ثورة ١٩١٩ أصبحت هذه القضايا فيما يخص بلادنا أكثر وضوحا ، فأمكن للأدب والفن رؤيتها وحصرها .

أما بعد الحرب العالمية الثانية فقد تزلزلت الأرض تحت أقدام العالم كله . واهتزت قلائع العقائد والمبادئ ووضعت فى ميدان المنازعات المسلمات الرواسخ وتغيرت جغرافية الأمم والشعوب وعدلت الخرائط وظفرت بالاستقلال والحرية السياسية شعوب لبثت تحت نير القهر والاستعباد طيلة قرون واتضح أن الاستقلال السياسى ليس هو الاستقلال الاقتصادى الذى لم تظهر به . وظهر أن الاستقلال الاقتصادى ليس مطلبا للشعوب فقط بل هو أيضا للقارات . ورأينا قارة مثل أوروبا التى كنا نعتبرها سيدة العالم أصبحت تخشى على استقلالها الاقتصادى وربما أيضا

السياسى من عملاقين هائلين عن يمين وعن يسار . كما اتضح أن التقدم العلمى الذى أدى إلى انقسام الذرة التى كانت فى المفهوم العام جوهرًا فردًا غير قابل للانقسام قد أدى إلى انقسام فى كل ما كنا نعتقد أنه جوهر فرد فى مجال القيم الإنسانية والاجتماعية والسياسية .. فمثلاً « الحرية » و « الديمقراطية » لم يصبح لهما مفهوم واحد : كما كان الحال فيما مضى حيث كان يكفى أن تذكر كلمة « الحرية » ليفهم الجميع المقصود ، لأن « الحرية » كانت قيمة إنسانية لها كيان واحد . أما اليوم فهذه القيمة انقسمت إلى كيانين . فالحرية فى المجتمع الرأسمالى هى حرية الفرد فى الحركة والتعبير والعمل . وهى فى المجتمع الشيوعى حرية البروليتاريا فى أن لا تستعبد لها طبقة أخرى . وكذلك « الديمقراطية » انقسمت إلى ديمقراطيتين ... ديمقراطية تقبل وجود المعارضة كأساس فى نظام حكمها ، وديمقراطية ليس فى نظامها هذا الأساس باعتبار أنها قائمة على طبقة واحدة هى الشعب كله ، وأن المعارضة لا تكون إلا فى المجتمع الطبقي .. ولم يقف الأمر اليوم عند هذا الحد من انقسام جوهر القيمة التى كانت واحدة . بل إن المعانى والمواقف التى كانت فى الماضى ثابتة أو بطيئة الحركة أصبحت الآن فى عالم الصواريخ والطائرات النفاثة سريعة التحرك والتغير .. فالولايات المتحدة التى حاربت النازية تتغير وتتحول إلى مناصرة الأنظمة الشبيهة بالنازية (فى أمريكا الجنوبية مثلاً) . ولقد جاء فى كتاب حديث الظهور لكاتب سياسى اسمه « دانييل كوستيل » أن الأمريكان يفضلون معسكرًا نازيًا منظمًا على معسكر الديمقراطيين الألمان .. كما ظهر كتاب حديث للعالم السوفيتى « أندرياساخاروف »

أبو القبيلة الهيدروجينية بعنوان « بلادى والعالم » ذكر فيه أن العامل فى أى دولة متقدمة فى البلاد الرأسمالية يرفض أن يعمل بالأجر الذى يتقاضاه العامل السوفيتى ، لأن متوسط الأجر الشهرى لهذا العامل السوفيتى هو ٦٠ روبلا إلى ١١٠ روبل ، والحد الأدنى من حيث القدرة الشرائية يعادل ٣٠ دولارا فى حين أن متوسط هذا الأجر للعامل الأمريكى هو من ٦٠٠ ٦٠٠ دولار إلى ٨٠٠ دولار ، مما يتيح له مستوى عاليا فى المعيشة وكان الرد على ذلك إدانة هذا المجتمع ووصفه بأنه « مجتمع الاستهلاك » أى مجتمع مادية يهبط بقيمة « الإنسان » . واتجه المجتمع السوفيتى إلى الجانب المعنوى والذهنى ففتحت أبواب الفنون الراقية للشعب كغذاء رئيسى إلى حد أصبحت فيه محطات المترو تحت الأرض شبيهة بالمتاحف تعرض فيها لوحات من الفن الرفيع ، وكأن قيمة الإنسان قد وزنت بغير الميزان المادى ، وكأن الشعار أصبح الآن هناك : « ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان » .. أترى الشيوعية التى قامت على المادية تتحول إلى القيم الروحية ؟ .. بل إن التغير والتحول فى الاتحاد السوفيتى قد شمل أيضا إجازة المؤلفات التى كان يعتبرها منذ ثلاثين سنة من الأعمال البورجوازية الممنوعة ، فقد نشرت الوكالة السوفيتية لحقوق التأليف قائمة المترجمات الأجنبية التى طبعت ونشرت فى الاتحاد السوفيتى بكميات كبيرة جاء فيها أن ما يقرب من مليون نسخة قد بيعت من قصة الفرسان الثلاثة « لاسكندر دوماس » كما أن كتب « فرنسواز ساجان » من بين المطبوعات الرائجة فى الاتحاد السوفيتى اليوم .

كل هذه التحولات والتغيرات السريعة التى تحدث فى المواقف

(تحديثات سنة ٢٠٠٠)

والمبادئ والأفكار في وقتنا الحاضر تجعل من الصعب ملاحقتها واعتناقها ،
إذ ما تكاد القدم تقف على أرض حتى تتحرك هذه الأرض من تحت القدم
وتتخذ موضعاً آخر ، تبعاً لحركات الفعل ورد الفعل التي تزاوها القوى
العظمى المسيطرة على عالم اليوم الذي أصبح كرقعة شطرنج واسعة
المدى . ولم يصبح أمام الإنسان سوى أن تختار جانباً من الجوانب ويترك
نفسه تتحرك بحركته . فإذا أردت كما جاء في السؤال أن أكتب اليوم من
جديدة «عودة الروح» فكيف أكتبها وبأى مضمون ؟ إن هذا يدعوني إلى
أن أسأل نفسي أولاً : عودة الروح لمن ؟ وأى روح أقصد ؟ لقد كان
معنى الروح عندنا في العشرينيات هو رفع روح مصر كما ذكرت وتجلية
شخصيتها وتقوية معنوياتها لتكافح في سبيل استقلالها . وقد تم لمصر
ذلك . وإذا أخذت بأقوال جيل الشباب الذي قرأها وذكر تأثيرها فيه
وخاصة عندما تسلم ذلك الجيل مصائر مصره فإن « عودة الروح » قد
أدت مهمتها بخيرها وشرها . وكذلك الحال بالنسبة إلى « عصفور من
الشرق » لا بد إذن من مضمون جديد لمثل هذه الأعمال التي لا تقاس على
أساس قيمتها الأدبية والفنية وحدها ، بل أيضاً وهو الأهم على أساس أثرها
وتأثيرها في مجتمعها ومساره ومضيره ، أو على أساس النتائج التي ترتبت
على ظهورها كما هو الحال في « يوميات نائب في الأرياف » وعلاقتها
بإنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية في ذلك العهد بمصلحة خاصة للفلاح ..
وهو مضمون لم يزل حياً بارزاً في كثير من أعمال الأجيال الأدبية اللاحقة
ولن يستنفد أغراضه أبداً .. كذلك مضمون « أهل الكهف » لم يزل

حيا ، ليس بالأعمال الأدبية ، ولكن بالمجتمع نفسه الذى تظهر كثيرا فيه قوى السلفية والرجعية أشد مما كانت وتحتاج إلى كفاح جديد .. وعلى أن الأعمال الأدبية المؤثرة فى المجتمع لم يعد من اليسير صدورها عن الكاتب الفرد كما كان الحال فى العشرينيات والثلاثينيات ، فقد تكونت الجماعات والتكتلات والمذاهب والأرضيات التى ينتمى إليها ويقف عليها الكاتب فى سبيل الأهداف التى يؤيدونها أو يخاصمونها ، فإذا كانت كتابات الكاتب متجهة إلى تقدمية أو رجعية فإنه يجد نفسه فى الحال تحت راية انتماء تبرزه وتقويه وتمده بالأسلحة الفكرية المعدة إعدادا مقنعا ، وبذلك تصنف أعمال الكاتب تصنيفا مذهبيا ، ويصبح التأثير فى المجتمع تأثيرا جماعيا ..

ولنعد إلى السؤال : كيف أكتب اليوم من جديد تلك الأعمال التى كتبت فى العشرينيات ونشرت فى أوائل الثلاثينيات ؟ إن الإجابة قد اقتضت كما رأينا دراسة المجتمعين المجتمع الماضى والمجتمع الحاضر .. ولكن السؤال لم يوضح لى حالتي الشخصية عند إعادة الكتابة من جديد لتلك الأعمال ؟ هل أقوم بذلك وأنا على حالتي اليوم من الشيخوخة ؟ أو على افتراض أنى عدت إلى الشباب شباب المجتمع الحاضر فى هذا العالم المعاصر ؟ إذا كانت الإجابة أن أبقي شيخا كما أنا الآن فما وجدوى ذلك ؟ ولماذا لا يقوم شاب بذلك ؟ وما قيمة الشيوخ إذن فى البشر كما فى النبات إذا لم يلقوا فى الأرض بذورا تنتج أشجارا نضرة تتحمل مسئولية الصالح لزمانها ؟ أما إذا كان المطلوب أن أعود افتراضا إلى الشباب فإنى أقول

لكم : ومن أدراكم لو عدت شابا أن أعود إلى حمل القلم ؟ لماذا لا
تفترضون أنى إن ظفرت بالشباب لا أنتهز الفرصة هذه المرة وأعيش حياة
« الصريحة » ؟؟؟ عوضا عن « الصرامة » صرامة الفكر المتعبة
المجهدة ... ستقولون لى على أن تحتفظ بطبعك الذى ولدت به .. آه لعنة
الله على هذا الطبع .. إذن سأسلك نفس الطريق وأحمل القلم ومتاعبه فى
عالم جديد غريب غير مفهوم بعد هو العالم المنفتح على القرن الحادى
والعشرين .

حياتنا .. ماذا بعد موتنا ؟

هل يقدر لنا أن نرى أحبائنا مرة أخرى بعد موتهم ؟ .. كان أوليفر لودج العالم الفيزيائي المعروف منذ القرن الماضي بأبحاثه في الضوء والكهرباء والإلكترونيات والرياضيات التطبيقية والفلسفة الطبيعية قد انتهى في أواخر حياته إلى الاعتقاد الراسخ في إمكان الاتصال بالموتى ، فنشر في هذا الموضوع مؤلفات منها « بقاء الإنسان بعد الموت » و « الحياة والموت » . ثم اتجه إلى المصالحة بين العلم والدين .. وكان لهذا الاتجاه الذى نقله من مجال البحث إلى مجال الروح والدين مما جعل بعض زملائه من العلماء يتعدون عن أخذ هذا الاتجاه مأخذ الجد واعتبروا ذلك نابعا من عاطفة حزنه الشديد على وفاة ابنه .. فطبيعة الإنسان بما ركب فيه من قوة فريدة في الذاكرة وإدراك عميق لأبعاد الشخصية البشرية وتقدير مدروس لأعجوبة الإنسان في هذا الوجود ، كل هذا يدفع الإنسان إلى رفض صورة فناءه وزواله النهائي من سجل الموجودات لمجرد فناء جسمه المادى . فهو منذ استوى على أرض الوعى الذاتى وهو يؤمن بأنه ما خلق بكل هذه الجواهر الثمينة في طبيعته إلا ليقضى وتبقى معه طبيعته المعجزة في حياة ممتدة إلى أبعد من حياة تركيبه المادى الواهن .. ولكن العلم المادى منذ انتفض قائما كالمارد أخذ يقلقنا .. وأنا بنوع خاص عقلالى المنحى بحكم الطبع المتأصل يستهوينى العلم وأميل إلى تصديقه .. ولكنه يوقعنى في

الحيرة عندما أراه صامتا أمام الروح.. وقد أتمس له العذر عندما أتذكر قدراته إنها قدرات فائقة بالفعل ، غير أنها قائمة على إدراك الأشياء بالحواس المادية . ومهما يتعمق العالم في عمله فإن اكتشافاته على علو قيمتها وسمو غايتها وقوة دفعها لتقدم الإنسانية إنما تتم بالفحص والفهم عن طريق ما تدركه وتمارسه حواسنا ، ولا شيء غير حواسنا ، هذه الحواس التي تقرر لنا الوجود وغير الوجود .. وماذا تكون حواسنا الضعيفة القاصرة في هذا الكون الهائل غير المتناهي ؟ هذه الحواس التي تعجز عن إدراك ما خرج عن نطاقها المحدود .. لذلك لجأ الإنسان إلى شيء يستطيع أن يجيب له عن الأسئلة التي ليس لها جواب عند العلم : إنه الدين .. ولكن أهل العقل يطمعون في أن يسمعوا رأي العلم في الدين ، وأن يربطوا بين العلم والدين . ولقد أتيح لي أن أجتمع بعالم كبير في مؤتمر ثقافي في فرنسا : هو « ألفريد كاستلر » عالم الفيزياء الحائز على جائزة نوبل عن بحوثه في المادة ، ومؤلف كتاب عنوانه « المادة هذا المجهول » . وهو مثل « أينشتاين » من العلماء المؤمنين . وقد سألته إحدى الصحف الكبرى عن « المادة » وقد قطع في أبحاثه شوطا أبعد مما وصل إليه أينشتاين ، لأنه انطلق في مساره بعد المرحلة التي وقف عندها سلفه العظيم ... أجاب كاستلر : « إننا كلما أوغلنا في دراسة المادة أدركنا أننا لم نعرف عنها شيئا . فهناك دائما وسوف يكون دائما وإلى الأبد ما هو مخفي عنا » .. فسألوه : مخفي بماذا ؟ بمن ؟ فقال : « بالنظام الكوني .. بالله .. ربما » هذا نص ما لفظه كاستلر . وكلمة « الله » على لسان عالم إنما تلفظ دائما بتحفظ . لأنه يخشى أن يسأل بعد ذلك عمن هو الله ؟ . وهو بكل علمه ، وبكل علم

البشر أجمعين لا يستطيع مخلوق على كوكبنا أو أى كوكب آخر ، ولن يستطيع أن يصف الله .. ولعل خير إجابة هى ما وردت فى القرآن : ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ .. ومع ذلك سألته عن رأيه فى العلاقة بين العلم والدين . فقال : إن العلم ينتمى إلى منطقة المعرفة التى تفسر الكون على أساس مبدأ « السببية » ، فى حين أن الدين يعتمد فى إدراك الكون على مبدأ « الغاية » .. وهذان المبدآن يكمل أحدهما الآخر ولا يعارضه . وبذلك يرى كاستلر أنه لا تعارض بين العلم والدين . فالتوفيق إذن بين العلم والدين قائم دائما عن طريق الاتفاق بينهما على الهدف . فهما لا يختلفان فى كونهما طريقين لإصلاح البشرية وتقديم الإنسان . ولكن لكل منهما طريقه الخاص . والخطأ فى التوفيق بينهما إنما يأتى من مطالبة الاثنين بالسير فى نفس الطريق واستخدام نفس الطريقة . فالطريقان مختلفان . والغاية واحدة .. طريق العلم تمتد فيه قضبان حديدية تسير عليها قاطرة العقل البشرى ، وتظل هذه القاطرة تسير حتى تجد أمامها سدا منيعا من بحار لا نهاية لها وجبال لا نفاذ خلالها فتقف القاطرة العقلية عاجزة .. أما طريق الدين فليس فيه قضبان ولا قاطرة .. إنما هو نور يملأ النفس ويشعرها بالوصول فى حضرة الله دون أن تراه . وهذه المرتبة من الإيمان ليست فى الشعائر التى قد يظن البسطاء أنها هى كل الدين .. فما الشعائر إلا وسائل يتوسل بها العاديون من المؤمنين لتهيئة نفوسهم وإصلاحها كي تسلك السبيل الذى يؤهلها للاقتراب من أشعة النور الإلهى . ولذلك فإن التركيز على الشعائر وحدها كما لو كانت هى كل الدين كالتركيز على السلايم أو السلام دون الاهتمام الأعمق والأقوى بالطابق العلوى حيث

النور الإلهي الذي من أجله صنعت السلام التي يرتقى عليها للوصول ..
فالطابق الأعلى إذن هو جوهر الدين . إنه إدراك النور بالشعور .
وبالعقول الكبيرة أيضا لأولئك العلماء الكبار الذين ذكرهم الله بقوله :
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . والخشية هنا هي التقدير
والإجلال، وليست مجرد الخوف من البطش والغضب .. هؤلاء العلماء
الذين قدروا الله حق قدره ، عندما توغلوا في الكشف عن أسرار خلقه
فتبين لهم في نهاية المطاف أنهم وأرضهم ليسوا أكثر من ذرة رمل على
شواطئ بلا حدود ، وأن خالق الشواطئ والبحار والجبال والسموات
والنجوم والمجرات والأكوان هو من العظمة بحيث لا يمكن أبدا للذرة رمل
مثلهم أن يقتربوا من سره إلا بشعاع من نوره يتفضل به عليهم .. وهنا
يجدون أنفسهم قد دخلوا منطقة الدين عن طريق عجزهم البشري .. وكما
جاء في كتاب « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية « إن الرسل ..
يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته » .. وهذا هو طوق النجاة في بحر اليأس
العميق. اليأس الذي يغرقني عندما يكاد العقل يقنعني بأنه لا سبيل لبقاء
الروح بعد فناء الجسد ، مفسرا إلى كياننا البشري تفسيراً علمياً بأنه مجرد
آلة كالآلة الحاسبة ، يعيش بذاكرة تملأ بالأحداث على مدى عمره كما تملأ
شرائط الكمبيوتر ، وإنه يتحرك بدوافع كهربية مغناطيسية تغذيها دورة
دموية ، وإن الذاكرة والروح والحركة إن هي إلا مجرد نشاط عضلي آلي
قد يصل التقدم التكنولوجي يوما إلى أن يصنع مثيلا للإنسان البشري ..
يا له من تصور علمي مخيف !.. ويا له من شقاء أليم أن نعلم أن أحبائنا
الذين ماتوا ليسوا أكثر من آلة تحطمت وصدئت وألقيت في حفرة العدم

النهائى.. لا رجعة لها ولا قيامة . وكما قال بولس الرسول فى إحدى رسائله فى صدد القيامة ، فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس إصحاح ١٥ :
« إن كان الأموات لا يقومون فنحن شقى جميع الناس فلنأكل ونشرب لأننا غدا نموت . ولكن يقول قائل كيف يقام الأموات وبأى جسم يأتون ، الذى نزرعه لا يحيا إن لم يميت .. بل حبة مجردة ربما من حنطة أو أحد البواقى ولكن الله يعطيها جسما كما أراد ولكل واحد من البذور جسمة .. وهكذا أيضا قيامة الأموات يزرع (الإنسان) فى فساد ويقام فى عدم فساد ، يزرع فى هوان ويقام فى مجد يزرع فى ضعف ويقام فى قوة ، يزرع جسما حيوانيا ويقام جسما روحيا .. »

إذا قلت لنا أيها العقل البشرى ويا أيها العلم الوضعى إن اجتماعنا مرة أخرى مع عزيزنا الذى مات هو أمر مستحيل عقلا فإن كلمتك لن تكون الأخيرة ، ولن تدفعنا إلى القنوط .. فإن فى قدرة الله وتقديره ما يتجاوز أى فكر لأى كائن مهما يبلغ عقله وعلمه فى أى جرم من أجرام الكون اللانهائى ..

تهنئة للديمقراطية

إن قرار الموافقة على تأسيس حزب الوفد الجديد قد أحدث في الشعب هزة فرح واستبشار . لأن الشعب المصرى بفطرته الواعية النابعة من إدراك سليم صقلته خبرة تاريخ قديم وتجارب آلاف السنين قد عرف أن شيئاً جديداً قد حدث . إنه عودة الروح إلى حياة نياية ولدت من ثورة شعبية قامت منذ أكثر من خمسين عاماً على الرغم من سلطان ملكى واحتلال بريطانى .. وكانت إرادة الشعب هى التى تقرر ، واختياره هو الذى يحقق ، وصوته هو الذى يعمل على كل صوت . إلى أن تدخلت بعد ذلك أصوات التشويش التى أخفت صوت الشعب فلم يعد أجد يتبين نبرته الحقيقية . إلى أن صدر القرار بالموافقة على تأسيس حزب تمتد جذوره إلى ذلك المنبع الأول لإرادة الشعب ، عندئذ تفاعلت البلاد ، وأيقنت أن الديمقراطية الكاملة بكل أركانها سوف تصبح حقيقة واقعة ، وأن الرئيس السادات عندما وعد بالتصحيح إنما كان يعنى ما يقول ، وإنه وقد بر بوعده سوف يكون هو السياج الذى يحمى شجرة الديمقراطية من العواصف المخربة حتى تؤتي ثمارها الطيبة .. فعلى الحزب الجديد أن يعمل على دعم هذه الديمقراطية بإرساء تقاليدها السليمة بالمعيشة النزهاء مع الأحزاب الأخرى فلا يخاصمها فيما هو حق ولا يهادنها فيما هو باطل . وأن يدرس مشكلات الشعب بعمق وخبرة . وأن لا يعارض لمجرد

المعارضة . وألا يكون هدفه الوصول إلى الكراسى .. بل أن يكون هدفه الأكبر هو النهضة بالبلاد في كل مرافقها ونواحيها .

وأن يعمل جادا على إعادة بناء الإنسان المصرى على أساس تأكيد شعوره بالوحدة الوطنية ، التى كانت من أهم إنجازات الوفد المصرى في عهده الأول . مع الاهتمام بمؤتمرات الحزب السنوية التى كان يراجع فيها برامجه، ذلك أن الهدف الأكبر وهو إعادة بناء الإنسان المصرى الذى انهارت قيمه الاجتماعية ، والروحية ، والعقلية ، بانهار الحرية والتكالب على المادية وضعف الروحية والمثالية وسطحية العقلية والفكرية ، مما جعل من الإنسان المصرى والمجتمع المصرى ذلك الكيان الهش بأحجار من القش ..

إذا استطاع حزب الوفد الجديد الذى كانت ولادته الأولى في أحضان الحرية أن يسهم بسلوكه الديمقراطي الجديد في بناء المصرى الجديد والمجتمع الحزب الجديد فإنه سيقود الأحزاب الأخرى إلى ميدان التنافس الشريف حيث يعمل الجميع كل بطريقته ووسائله على إنقاذ البلاد من كبوتها لتسير نحو التقدم والازدهار ليراها العالم مرة أخرى في صورتها الحقيقية : « مصر العظيمة الخالدة » ..

مرضى الإرهاب .. والطبيب فالدهايم

هو مرض عضال ، يصيب جسم الإنسانية : جرائمه تظهر في اليد على صورة مسدس وقنبلة يدوية ، ما يكاد يشهرها شخص في وجه إنسان آمن أو جماعة آمنة ، حتى تتجمد بالشلل .. وكما أن الجرائم التي تدخل أجسامنا وتلحق بها الأمراض العادية لا تسألنا عما ارتكبناه من ذنب قبل أن تلحق بنا الضرر ، كذلك جرائم الإرهاب لا تسأل ولا تناقش .. ولقد اجتمع كثير من الأطباء العقلاء في مختلف أنحاء العالم ، يبحثون في علاج لهذا المرض .. وهل هو من الأمراض التي تعالج بالمراهم والعقاقير ؟ أم بالجراحة والاستئصال ؟ .. ولقد حاول الطبيب الكبير « فالدهايم » أن يجمع كلمة موحدة في هيئة الأمم لإزالة هذا المرض من جسم الإنسانية فلم يوفق حتى الآن فيما يظهر .. لأن بعض الدول تريد أن يستخدم هذا المرض سلاحا يوصلها إلى بعض الأهداف .. وقد تكون بعض هذه الأهداف مشروعة ، ولكن السلاح المستعمل غير مشروع .. ككل سلاح يصيب جسم الإنسانية بغير تمييز بين المذنب والبريء .. بل إن هذا السلاح غير المشروع إجرامى ، لأنه يجعل البريء هو الذى يدفع الثمن عن المذنب .. كما أنه يجعل دولا ، تساند الإرهاب وتحمى هذا المريض ، وبعضها عندك في هيئة الأمم — أيها الطبيب الإنسان « فالدهايم » — وإليك المثل الصارخ فيما حدث أخيرا في قبرص .. دخل مرض الإرهاب

في هذه الجزيرة التي طالما ساندتها مصر .. وأنت تعلم ولا شك كيف كان رئيسها الراحل « مكاريوس » يعتمد على مصر في جهاده الوطني .. ماذا يقول ذلك الرئيس الصالح في قبره وهو يرى اليوم جثة ابن بار من أبناء مصر طريحة على أرض وطنك يا مكاريوس ، وهي تنزف بالدماء من فعل الإرهاب ، ودبابات بلادك تنسف طائرة مصرية بطياريتها ، حماية للإرهابيين ؟ .. مهما يكن من حجة زعماء قبرص بأن طائرة مصر وجنودها قدمت بغير إذن ، فإنها لم تقدم لغزو ويرر تدميرها بهذا العنف ..

عنف المعركة الحربية الحقيقية .. إنما جاءت لمساعدة دولة صديقة لمنع الإرهاب ، وعلى هذا الأساس ، سمحت لنفسها بالعمل السريع بغير إذن — إذا صح ذلك — في أرض ترتبط معها بصداقة ومحبة ومودة لا شك فيها على أثر ظرف حزين هز وجدان مصر .. وكان يكفي لمثل هذه المخالفة من مصر — حسب حجة قبرص — مجرد الاحتجاج الرسمي ، وعلى أشد الإجراءات ، مجرد محاصرة القوة المصرية ، دون إطلاق النار عليها من الخلف .. أما الأمر للدبابات القبرصية بأن تطلق نيرانها فتنسف الطائرة بمن فيها من الطيارين المصريين ، وتفجير معركة حربية يسقط فيها هذا العدد من جنود دولة صديقة ، ما جاءوا إلا للمعاونة في القضاء على الإرهاب ، فهو أمر تجاوز بكثير حجة الدفاع عن سيادة الدولة التي كان يكفي فيها ، كما قلت ، إجراءات أخف يراعى فيها الطرف المحزن ، وعلاقة الصداقة المتينة بين البلدين .. ولكنه الإرهاب .. وهذا وحده ربما السبب في تصرف قبرص الغريب .. هذا الإرهاب الذي وقعت قبرص تحت تأثيره .. إرهاب من أفراد قد يكون وراءه جماعات لها خطرهما

ونفوذها .. كان من نتيجته هذه التصرفات السياسية والعسكرية
المؤسفة ...

هذا المثل الصارخ ، أضعه تحت نظر سكرتير عام هيئة الأمم ، كى
يحقق فيه ، ويتحقق من خطورته ، ليس بالنسبة إلى عضوين فى هيئة الأمم
فقط ، ولا باعتبار أنه من الحالات الفردية ، ولكن بالنسبة إلى وقعه على
الإنسانية كلها ، بمجموع دولها وشعوبها فى آواخر هذا القرن
العشرين .. ذلك أن استمرار الإرهاب وترك المساندين له بغير إقناعهم
بخطورة فعلهم ، سوف يؤدي إلى أوخم العواقب على البشرية كافة ،
وعلى الحضارة الإنسانية برمتها .. بل وعلى موقع الدكتور فالدهايم الذى
يشرف منه على المجتمع الدولى وأمنه وسلامه ، وعلى وسائل التقدم به ، فى
جو من الطمأنينة على حياة الإنسان ونشاطه العقلى والروحى المتحرر من
كل خوف وإرهاب ..

أسخف مقال ..

ولابد منه للاهتمام الموجه أخيراً بتخلف الأدب العربى .

ربما كان هذا المقال فعلاً هو أسخف ما كتبت . ووجه السخافة فيه هو أن يكتب كاتب بنفسه وبقلمه ما يستفاد منه أنه يز هو بذاته ويقرظ عمله وينشر بالصور ما يظنه موضع فخر ، وكان الأجدر به أن يتولى ذلك عنه صحفى أديب فى صورة حديث أو تحقيق صحفى أهدو فيه كما لو كنت بعيداً عن الموضوع . وهو ما حدث ويحدث عادة لى ولغيرى . وقد كاد يحدث هذا بالفعل . فقد سمحت لأحد الصحفيين المعروفين بكتابة الموضوع بقلمه واسمه يأخذ صوراً مما يعتبر وثائق ضرورية لتدعيم مقاله . وهى مما كانت فى حوزتى منذ أعوام طويلة لا أفكر فى إظهارها واستخداعها كما يحدث اليوم . فما الذى جرى إذن حتى أعرض نفسى لمثل هذه السخافة ؟

حاولت التغاضى عن الموضوع باعتبار الأمر لا أهمية له عندى بالقدر الذى يدعونى إلى الخوض فيه .. ولكنى لم ألبث أن وجدت الاهتمام قد انتشر ويكاد أن ينقلب إلى قضية الأدب العربى كله وموقفنا نحن إزاءه من الشعور بمركب النقص أو الزيادة فى وقت بدأ العالم فيه يلتفت إلى البلاد العربيه ومدى استيعابها للحضارة الحديثة ومدى استحقاقها للاهتمام العام

في ميدان الفكر والأدب . وقليل منا من يعرف أو أتبح له أن يطلع على ما يكشف منه رأى العالم المتحضر فيما نكتب وننتج . ولذلك سمحت لنفسي بنشر بعض ما في حوزتي من صور قد تشير إلى رأى أوروبى فينا باعتبارى أنى أحد أبناء البلاد العربية . أما رأينا نحن فى أنفسنا فهو متناقض بين الانتقاص من قدرنا أمام أوروبا انتقاصا لا يمثل الواقع وبين الزيادة المغرورة التى لا تمثل الحقيقة أيضا . أما مركب النقص فهو الزعم بأنه ليس لدينا مؤلفات عربية تصل إلى مستوى الأعمال الأوروبية . وهو افتراء يؤسف له وكان الأجدر به أن يصدر من أعدائنا الدائبين على إظهارنا دائما بمظهر التخلف الحضارى والفكرى . وربما كانوا هم يعلمون أكثر مما يعلم بعضنا نحن أننا لسنا فى هذا الدرك من الإهمال والإغفال . فهم ولا شك قد يعلمون بشيء مما نشر لنا فى الخارج . ومنها هذه الصور لترجمات الكتب التى نشرت لى أنا على الأقل بكل هذه اللغات الحية ، والمسرحيات التى مثلها لى كبار ممثلى العصر مثل الممثل الإنجليزى العظيم سير جون جيلجود زميل سير لورانس أوليفيه فى مسرح شكسبير، ولعلها أول مرة يمثل فيها جيلجود العالمى مسرحية لأديب مصرى عربى ومعه الممثلة الإنجليزية الكبيرة مرجريت لايتون . كما مثلت لى (الأديب العربى) الممثلة الفرنسية الكبيرة سيلفيا مونفور . وباللغة الإيطالية الممثلة المشهورة نيدانالدى . كما أنه لأول مرة فوق مسرح الموزاتيوم — دار الموسيقى موزارت — بسالزبورج تمثل لهذا الأديب العربى المصرى — مسرحية بالألمانية . إن هذا الأديب العربى نفسه قد وضع إلى جانب بيراندللو الإيطالى وتشيكوف الروسى فى برنامج واحد يضم ثلاث مسرحيات

قصيرة لهم لتعرض في عشرة مراكز ثقافية في أنحاء فرنسا . هذا إلى أن هذا الأديب العربى نفسه قد وضع اسمه بين أسماء أهم الروائيين في العالم فيما بين ١٩٢٦ — ١٩٥٥ من أمثال مالرو وسارتر وشولوخوف ومورافيا وغيرهم. أكثر من ذلك فقد جاء في تقرير لجنة القراءة للكوميدي فرانسيز بباريس وهى التى يرأسها « روبير كيمب » عضو الأكاديمية الفرنسية والناقد المسرحى لجريدة الموند ما نصه : « .. كم نتمنى لو ظفّرنا — ولو بين الحين والحين — ضمن ما يرد إلى مسرح الكوميدي فرانسيز من نصوص مثل هذه الثروة في الفكر والروعة في الشكل .. (بالنسبة للمسرحيات العشر في المجلد الأول لتوفيق الحكيم) .. أما من حيث المحلية فمما يستلفت النظر أن مسرحية « الصفقة » وهى ريفية بحثة عن قرية مصرية صغيرة وقد ترجمت ونشرت في شمال أوروبا ومثلت في السويد وهولندا والدنمارك وفنلنده في عام واحد في الستينات .. هذا وغيره مما لا يتسع المقام الآن لتفصيله قد يعطى فكرة عن الموقف الحقيقى للأدب العربى . ولذلك كان من الطبيعى وغير المبالغ فيه ترشيح طه حسين ثم توفيق الحكيم لجائزة نوبل منذ سنوات . أما لماذا لم تمنح هذه الجائزة لأديب عربى فهنا ندخل المنطقة الأخرى وهى مركب الزيادة أو الغرور . لأننا يجب أن نطرح السؤال بالنسبة إلى غيرنا ممن هم أكثر منا تقدما مثل الصين مثلاً أو اليابان وقد ظلت مهملة طويلا ولم تظفر بها إلا مرة واحدة منذ نحو خمسة أعوام فقط، كما أن من الأدباء العالميين العظام من لم يظفر بها حتى اليوم (تحديثات سنة ٢٠٠٠)

مثل ألبرتو مورافيا بل مثل أندريه مالرو الذى توفى أخيراً دون أن يظفر بها .
توفى النهاية هل هناك مبرر لارتكالى مثل هذه السخافة بنشر هذا
الكلام ؟ إذا كانت نتيجة ذلك هى رد الاعتبار إلى أدبنا العربى ورفع الروح
المعنوية لأدبائنا العرب فإنى أتحمل وزر سخافتى هذه ولا أبالى بشيء .

للمبادرة معنيان

عدت من رحلة ثقافية قصيرة في أوروبا صادفت خلالها أحد المفكرين وجاء ذكر المبادرة فأدركت السر في اهتمام العالم بها . ليس العالم السياسي وحده ، بل العالم الإنساني كله . هذا العالم الواسع بأهل فكره وجامعاته العلمية والأدبية ومحيطه الشامل لرجل الشارع من تاجر وزارع وعامل .. إن الأمر يجب أن يكون له إذن أكثر من معنى كبير . معنى أكبر من مجرد إجراء سياسي بين دول صغيرة في منطقة محدودة على خريطة .

* * *

وهذا ما فهم فعلا من المبادرة فهي في نظرهم دعوة للإنسان وإيلان بخروجه من عصر الغابة الذي شعاره « ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة » إلى عصر التخلص من جاذبية الأرض والغريزة الحيوانية إلى عصر الفضاء والارتفاع الإنساني بشعار يناسبه ، وهو السلام وبالسلام . وما أخذ بالقوة يسترد بالسلام. هذه الدعوة الإنسانية العليا الجديرة بالعصر الجديد ، الصالحة كمدخل للقرن القادم الحادي والعشرين وما بعده من قرون هي التي فهمها العالم المتحضر كله من المعنى الحقيقي للمبادرة ، ونهض نهضة رجل واحد ليصفق لها مهللا مبشرا بشروق فجر جديد للإنسان الجديد ، ولذلك أصبحت ملك العالم كله وليست خاصة بالشرق الأوسط وحده . ولذلك فهي لن تموت لأن في موتها موت لأمل

الإنسان العصري والجنس البشرى فى إمكان خروجه من غريزة الغابة ..
فهى الآن فى يد العلم المتحضر كله وعليه تقع مسئولية الحفاظ على هذا
الأمل حيا فى النفوس ، والعمل على تحقيقه وتجسيده على أرض الواقع
الحى ..

* * *

وهذا ما فهمته أنا وعبرت عنه فى أول سطر نشرته عن المبادرة ، وقلت
إنه لا يهمنى منها الإجراء السياسى المحدود لأنها كإجراء سياسى لم أتوقع
الإتيان بنتائج حاسمة ، لأن الباعث السياسى عليها من الأصل كان مجرد
إزالة العقبات ونزع الأشواك من طريق جنيف ، لأن عقد السلام النهائى
لا بد أن يتم بإجماع كل الأطراف على مائدة جنيف ... ولذلك لست أفهم
لماذا عارضها المعارضون وما هى من الناحية السياسية المحلية سوى تعبيد
الطريق وتمهيد لإجراءات وإذلال لصعوبات لتيسير السبيل إلى مؤتمر
الصلح النهائى الذى يتفق فيه كل الأطراف فى جنيف .. كذلك لست
أفهم كيف وقع الخطأ فى تفكيرنا من أن المبادرة ستأتى مباشرة بالنتائج
الفاصلة ، فلما لم تسفر عن تحقيق الآمال الكبيرة التى انتظرناها منها قال
الكثيرون منا فى العالم العربى إن المبادرة قد فشلت .. وحقيقة الأمر فى
نظرى ونظر الكثير من المفكرين فى العالم كله هو أن للمبادرة شقين
ومعنيين وهدفين : المعنى العام وهى الدعوة الإنسانية التى تهتم الجنس
البشرى كله وتمس مستقبله ومصيره ، ومسئوليتها تقع على عالم الإنسان
وجميع الدول والشعوب ، وهى الدعوة الباقية التى لا يمكن أن تفشل أو
تموت ، لأنها لم تعد ملكا لأحد أو دولة أو أمة ولكنها ملك للعالم كله بدوله

وشعوبه... ثم المعنى الخاص وهو الإجراء السياسى المحدد بقضية معينة فى منطقة وهو المعنى الذى يمكن أن تختلف فى تقدير نتائجه التفسيرات والتحليلات... فلماذا لا نفهم الأمر على وجهه الصحيح هذا : وهو أن المبادرة كمعنى عام هى دعوة إنسانية للجميع وكمعنى خاص هى إجراء قُصد به التمهيد والتسهيل للصالح النهائى المبنى على رد الحقوق فى جنيف .. وقد نستفيد من المعنى العام لدعم المعنى الخاص ... والمهم هو الفهم والتفاهم فى منطقتنا بالحسنى والعمل بما أوصانا به ديننا الحنيف : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .

اقترح

لا جدال في أن مفاوضاتنا ومعاهدتنا فيما يتعلق بأرضنا هما حق لنا دون شريك ولكن المفاوضات والمعاهدات فيما يتعلق بأرض ليست أرضنا لابد أن تكون من شأن أصحاب الأرض .. ولذلك أرى بعد استلامنا العرش أن نبتعد عن التدخل فيما هو من شأن غيرنا .. ولنا أن نعتبر المفاوضات، التي ستجرى بخصوص الضفة الغربية وغزة ليست مفاوضات مصيرية كما أكد السيد الرئيس ، بل هي كما يمكن أن أسميها مفاوضات إنسانية لرفع المعاناة عن كاهل الشعب الفلسطيني .. أما مفاوضات تقرير المصير فهي تدخل في نطاق المرحلة الثانية التي جاء ذكرها في كامب ديفيد وهي المرحلة التي يجب أن يقوم بالتفاوض فيها الفلسطينيون أنفسهم أو من يمثلهم من منظمات التحرير . وهنا أقترح أن تكون رئاسة هذه المرحلة للسوفييت .. ذلك أن الاتفاق السابق الذي نص على أن تكون رئاسة المفاوضات في جنيف لأمريكا والاتحاد السوفيتي بالتبادل أو التناوب هو اتفاق فيما يبدو قائم ، ولم يرد ما يدل على إلغائه . وأن ما يحدث في كامب ديفيد لم يكن سوى مجرد مرحلة أولى للسلام برئاسة أمريكا ، وأن المرحلة الثانية يمكن أن تكون برئاسة الاتحاد السوفيتي في جنيف . ولمصر أن تشارك فيه إذا طلب منها ذلك .. وعلى هذا الوضع لا يكون هناك تناقض بين كامب ديفيد و جنيف ، وأن ما

— ٨٧ —

حدث إنما هو تقسيم الحل الشامل إلى مرحلتين : مرحلة أولى برئاسة أمريكا ، ومرحلة ثانية برئاسة السوفييت ذلك أن السلام الشامل يستلزم الاتفاق عليه بين القوتين الكبيرتين ، حتى نضمن لهذا السلام في المنطقة قوته واستمراره ، ويلتزم به شمل الجميع وتنعم المنطقة كلها بثماره .

تحت ظلال السلام

الزراعة هي بترونا

السلام ليس كلمة عاطفية شاعرية .. إنما السلام شجرة طيبة ، نزرعها لنعمل في ظلها العمل الذى يرفع مستوانا الاقتصادى والحضارى .. وهذه العبارة : « الزراعة هي بترونا » ، لست أنا قائلها .. بل قائلها هو الرئيس الفرنسى فاليرى جيسكار ديستان فى خطبة له أمام اجتماع واسع للمزارعين فى فرنسا .. رأيت وسمعتة يقولها لهم وأنا أشاهده فى التلفزيون الفرنسى أثناء وجودى أخيرا فى باريس .. ولقد انغرس فى هذه العبارة فى رأسى ونفسى ، وقلت من فورى : « هذه العبارة نحن أولى بها ! » .. فمصر هي أم الزراعة والمزارعين منذ مبدأ التاريخ .. غهى ناقلة البشرية كلها من عصر الصيد إلى عصر الزراعة ، ومن مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة .. فعلينا نحن إذن أهل مصر ، نبت النيل ، وأم الزرع ، أن نجعل الزراعة أساس اقتصادنا ، وأن نعتبرها بترونا .. وأن نوليها العناية الأولى .. وأن نقيم صناعتنا على دعائم زراعتنا .. فالتصنيع عندنا يجب أن يكون فى المقام الأول هو التصنيع الزراعى .. ولقد ثبت بالفعل أن أنجح صناعة لنا هي صناعة النسيج القائمة على قطننا .. وكلما ابتعدنا عن زراعتنا بصناعة دخيلة لا تتصل بشمرات أرضنا ، بؤنا

بالخسران .. وإنى لأتوقع عهد سلام دائم أنظر فيه بعين الواقع المأمول ، لا بعين الخيال المستحيل ، فإذا بصحرائنا الجرداء قد اختلطت بالمزارع والمراعى ، وإذا بمصانعنا على مقربة من الحقول للنسيج والتعليب ، تجنى من قطننا ، وتنسج الثياب ، وتجمع من خضرنا وفاكهتنا وتعلب الأغذية ، ومن مراعى ماشيتنا وحظائر دواجننا وطيورنا ، يغمرنا الطعام لكل فم باللحوم والألبان والجبن والبيض والخضر والفاكهة ، فلا يكون فى أرض النيل محتاج إلى غذاء أو كساء .. ويعم بعد ذلك فائض إنتاج بترولنا الزراعى على كل من يحتاج إليه من بقية الأمم.... ولذلك أتصور الاهتمام بزراعة كل شبر فى أرضنا ، زراعة علمية مكثفة ، على أساس الميكنة .. وأن تقوم صناعتنا الثقيلة والخفيفة على إنتاج الجرارات والثلاجات والمعلبات بكميات وفيرة على مقربة من الحقول ، حتى يعمل فيها الفلاح الوقت المتبقى له بعد أن وفرت له الميكنة الوقت الذى كان ينفقه بالأدوات التقليدية القديمة .. وبذلك يكون الفلاح زارعا وصانعا فى نفس الوقت ، مما يزيد دخله ويرفع مستواه ، ولا يبعده عن أرضه وقريته وعشيرته . كل شئ إذن فى أرض مصر خالقة الزراعة على هذا الكوكب يجب أن يخدم وينمى زراعتنا .. حتى العلم فى معاهدنا ومعاملنا يجب أن يشغل فى المقام الأول بما يهم الزراعة ، بترولنا الأول ، فتنشأ فى القرى والحقول المدارس وكليات الزراعة ومعامل التحليل التى تخصص وتتعمق فى دراسة كل منطقة ، بما تتصف به وتتميز به من نوعية خاصة فى طبيعة الأرض والحصائل بما يكفل تحسين التربة ومضاعفة الإنتاج .. هذا إلى جانب العناية بتطوير الصناعات الزراعية بما يرفع مستوى القرية فى

مساكنها وشوارعها وخدماتها العامة وحياتها الثقافية والاجتماعية ، فلا
تتكدر العواصم الكبرى وتحتنق بالنازحين الهاربين من بؤس الأرياف
وقرها .. هذا تصوري لمستقبل مصر بعد السلام وتحت ظلاله ، فهل
نستطيع أن نخطط منذ اليوم لهذا المستقبل ؟ .. أرجو أن يكون لتصوري
هذا صدى في النفوس والعقول ، وأن نجعل شعارنا هذه العبارة التي
غرس في نفسي وعقلي : « الزراعة بترو لنا » ...

نداء : من توفيق الحكيم

إلى معاونه السابق أبا إيبان :

اقترح إنشاء جمعية عربية إسرائيلية بباريس

لدى مروره في باريس طلب منا الكاتب المصرى الكبير توفيق الحكيم مؤلف كتاب « يوميات في الأرياف » أن ننشر له النداء التالى :

أنا الكاتب المسلم المصرى الذى يتحدث اللغة العربية كان لى معاون هو وزير سابق فى إحدى حكومات إسرائيل . بدأت القصة فى عام ١٩٤٣ ، عندما كان السيد أبا إيبان فى القاهرة يعمل مع الجيش البريطانى . وهو مستعرب ذو علم واسع ، بعث لى برسالة مكتوبة بلغة عربية ممتازة يخبرنى فيها بأنه بدأ فى ترجمة كتابى « يوميات نائب فى الأرياف » إلى اللغة الإنجليزية .

ونشر الكتاب فى لندن فى عام ١٩٤٧ ، وكان الكاتب بمثابة بداية لتعاون مثمر تحول بعد ذلك إلى عدااء ضار .

وفى الوقت الحاضر لا يمكن أن نقول أن للكتاب وجودا وإعادة طبعه توقفت تماما ، نظرا لأن المتعاونين أصبحوا أعداء وآمل أن نستأنف تعاوننا السابق .

وعندما توجه توسكانينى إلى مصر ليقود أوركسترا القاهرة
السيمفونية ، لاحظ غياب بعض العازفين الذين أحضروا من تل أبيب .
وأثناء إقامتى القصيرة فى هذه المدينة استقبلنى مدير مسرح « حايما »
الشهير ، وقابلت ماكر برود وصديقى مترجم وناشر كافكا الذى كان
يشغل منصب المستشار الأدبى للمسرح ، وتحدثنا عن إمكانية إخراج
مسرحيتى « سليمان الحكيم » التى اقتبست من التوراة والقرآن
فالتعاون الثقافى والفنى بين العرب والإسرائيليين كان قائما فى هذه
المنطقة .

أنا لست سياسيا ، ولكن أبا إيمان قبل أن يكون رجل سياسة ، كان
أديبا ورجلا محبا للإنسانية فما رأيه بالذى يدور الآن ؟ هل بإمكانك يا
معاونى السابق أن تعمل من أجل إقامة السلام فى المنطقة ؟
وفى هذه الأثناء ، أتمنى أن أبدأ بخطوة نحو التعايش الثقافى المنشود
باقتراح إنشاء جمعية عربية — إسرائيلية فى باريس ، وأقدم من أجل هذه
الفكرة مبلغا متواضعا : ٣٠٠ دولار موجودة فى جيبى فى هذه اللحظة .
فهل سيدعم بعض الأصدقاء أو المنضمين للجمعية هذا الاقتراح ؟
انتظر متفائلا آملا .

الحياة

لن تعرف مصر لها راحة ، ولن يتم لها استقرار ولن يشبع فيها جائع إلا عن طريق واحد : يكفل لها بذل مالها لإطعام الجائعين والمحتاجين ، وتكرس جهدها للتقدم بالمتخلفين ، وتوجيه عنايتها إلى الارتقاء بالروح والعقل في مناخ الحرية والأمن والعلمانية .. وهذا لن يكون أبدا ما دامت الأموال والجهود تضيع بعيدا عن مطالب الشعب ، بدافع من مشكلات خارجية ودولية تغذيها الأطماع الداخلية والشخصية .. ما هو الطريق إذن إلى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة والروح والعقل ؟.. إن هذه الواحة المورقة المزهرة اسمها « الحياة » ..

نعم ... إن مستقبل مصر الحقيقي هو في حياة مثل حياة سويسرا والنمسا .. هذا الحياة الذي أنقذهما من المنازعات والتيارات التي ألقت بكثير من الدول في خضم بحار مضطربة من السياسات المتعارضة .. وقد اعترف العالم لسويسرا والنمسا بهذا الحياة ، مع أن مبررات حياتهما أقل فائدة بكثير للعالم من حياة مصر .. وذلك لما أهديه في النقاط التالية :

مبررات الحياة للعالم:

هذه المبررات يفرضها الموقع الجغرافي لمصر ، من حيث هي صاحبة قناة السويس التي يجب أن تظل مفتوحة دائما لخير العالم كله .. لا أن

تعرض للإغلاق بين حين وحين ، فيصاب العالم من جراء إغلاقها بالأزمات الاقتصادية .. ثم يفرضها أيضا الوضع الحضارى لمصر .. فهى الوحيدة فى الدنيا التى تعتبر — بحق — « متحف العالم » ، لأن فيها أكثر آثار الحضارات مجتمعة : فيها آثار الفراعنة ، والإغريق ، والرومان ، والمسيحية ، والإسلام .. فى حين أن بلدا مثل اليونان يفخر بوجود آثار حضارة واحدة هى الإغريق ، وأن بلدا مثل أسبانيا يزهو بحضارة العرب .. وبذلك كانا فى مقدمة البلاد السياحية . أما مصر ، فالذى يأتى إليها يجد جوا فريدا فى الدنيا بنسماته وشمسه اللطيفة طوال السنة ، ومتحف العالم القائم فيها بكل آثار الحضارات على مراحل التاريخ مجتمعة فى دولة واحدة ..

حضارة ملك الدنيا :

ولأن الآثار الحضارية لتاريخ البشرية الموجودة فى مصر يعتبرها العالم المتحضر ملكا لجميع الدول ، فقد تكاثفت كل الدول وساهمت بمالها وجهدها فى نقل وترميم معبد « أبو سمبل » ، ولذلك فأى تخريب لهذا المتحف العالمى نتيجة مشكلات سياسية أو مغامرات عسكرية ستكون له نتائج وخيمة من الناحية العقلية والفكرية للدنيا بأسرها بمثابة للنتائج الوخيمة الاقتصادية التى تصيب الدنيا من جراء انسداد الشريان الحيوى لاقتصاد العالم وهو « قناة السويس » .. لذلك فإن العالم كله سوف يرحب ويضمن « حياد مصر » ..

مصر قلب العرب

ولا كانت مصر هي متحف العالم ، فهي في نفس الوقت القلب الحضارى للعرب .. وكل ما تناله من تقدم حضارى هو ملك للعرب والعروبة .. فكل جامعاتها ومدارسها وأساتذتها وعلمائها وفنانيها ومتاحفها وآثارها ومسارحها ومغانيها وجوها ونيلها وشواطئها وفنادقها ومصارفها وشعبها وعمالها وزراعتها ... وكل شيء فيها هو ملك للعرب . وفي خدمتهم ... والحاجة الملحة للعرب والعروبة اليوم هي النهضة الحضارية التي تكفل لهم القوة الحقيقية .. وهذه ينبغي أن تكون رسالة مصر التي تلقى على عاتقها ويطالبونها بها ويعملون على أن تتفرغ لها مصر وتكرس كل جهودها من أجلها وحدها .. فلا تشغلها عنها مشاكل سياسية ومشاكل حرية، مما يستطيع غيرها القيام به .. فعند العرب الآن المال والرجال .. ولا شك أنهم قد شبوا عن الطوق ، ولم يعودوا في حاجة إلى إلقاء المشاكل والمشاكل على كاهل مصر ، لتشل فكرها وتنزف دماءها ، ويجموع أبناؤها .. إن قلب مصر المفتوح للعرب دائما هو قلبها الحضارى .. وهو القلب الذى هم في حاجة إليه للسير في طريق النهضة والعزة والقوة الحقيقية .. فليحافظوا على هذا القلب ..

جيش مصر

أما جيش مصر فيجب أن يكون جيشا دفاعيا قويا مزودا بأحدث الأسلحة لا للهجوم والاعتداء ، ولكن للدفاع عن حياتها ، فلا تجرؤ قوة من شبر واحد من أرض مصر المحايدة ، دون أن تجد هذه الأرض الطيبة

المسألة قد أصبحت جحيما يصلى بنار ذات لهب كل من يمس هذه الأرض بسوء ، أو يعتدى على حيادها واستقلالها ..

فكرة الحياد

إنى أعلم أن فكرة الحياد هذه ليست واردة فى ذهن حكومتنا ولا فى برنامج حزب من أحزابنا ولكنه رأى لى ، ليس من حق أحد أن يمنعنى من اعتناقه وإعلانه . وخاصة فى وقتنا الحاضر الذى نشعر فيه بحرية الرأى .. فرأى الذى أومن به وسأظل أدعو إليه ، هو هذا الحياد لمصر .. هذا الحياد الضرورى لها والمفيد لأشقائها العرب .. حياد مصر الذى يجعل منها الصدر الحنون للجميع .. فلا تشعر مصر أنها فى حالة رهن دائم ، وأن مصيرها ومستقبلها وكيانها مرهون فى « بنك رهونات » النزاعات والمشكلات التى تعرقل جهودها فى إطعام شعبها وفى التقدم النافع لها ولأشقائها .. إنى أعرف الصغوبات القائمة فى هذا الطريق .. فمن الأفراد والجماعات والدول من يريد زج مصر فى المعترك ، ليستخدمها لمنفعته أو لمصلحة طرف ضد طرف .. ولكن المخلص الحقيقى لمصر ، والناظر النزيه بعين الفائدة إلى منطقتنا وإلى الإنسانية ، سيرى الحق كله فى هذا الرأى .. وإنى أعرضه اليوم لينظر فيه الشرفاء المخلصون فى كل مكان .. ولن أكف عن العمل من أجله ، وسأكون مع كل فرد أو حزب أو هيئة تجعله من شأنها واهتمامها وبرنامجها .. والله ولى التوفيق ...

هذا هو رأى مصر ..

فى حياء مصر

كان لما نشر فى أخبار اليوم والأخبار من ردود على دعوة « الحياء » وما تجمع من آراء فى هذا الموضوع ما يوجب اطلاع الجمهور عليه ، ونشره فيما يلى بقدر ما يتسع المقام مشفوعا بما سمحت به لنفسه من هذه الملاحظات :

● أول ما لاحظت على هذه الآراء والردود يقظة مصر ووعيا بنفسها وبما آل إليه حالها لشدة ما قاست وتقاسى من الآم جروح عميقة سببتها حروب عديدة متلاحقة تحملت هى فيها أكبر الأعباء وأشد الصدمات وكسب الآخرون ولم تغفر منهم بغير اللعنات من جانب وبعض المراهم السطحية للجروح من الجانب الآخر حتى آمنت آخر الأمر بأن لا شىء غير مصر وأن مصر قبل كل شىء .

● إن الألفاظ الإنشائية عن التزامات مصر وزعامتها وقيادتها لم تعد تقنع أهل مصر الجائعة وأن قلة ممن ليسوا من الجياع ولكن من الشباى هم الذين يتمتعون بترف التفلسف بهذه الألفاظ . أما الأغلبية الباحثة عن لقمة العيش فهى تتساءل :

لماذا الحديث دائما عن التزامات مصر نحو الآخرين ، ولماذا لا نسمع

(تحديثات سنة ٢٠٠٠)

أحدا يفكر في التزامات الآخرين نحو مصر ١٢

● أخذ المصريون يفطنون ، ويتذكرون كيف أن أمريكا أنهضت حلفاءها في أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية بمشروع مارشال الذى أقامها على قدميها مستردة قوتها الصناعية وليس بمساعدات ومراهم سطحية .
في حين أن مشروعا مثل زراعة المائة مليون فدان في السودان الذى يقضى على جوعنا قضاء نهائيا لا يجد في مئات المليارات عند أشقائنا حصة ضئيلة ضمن المال الذى ينفق في شراء فنادق إنجلترا وجزر أمريكا ..
● التضامن العربى ليس كلمة لغوية ، لكنه صندوق أموال استثمارية . والوحدة العربية ليست هى الجوع في جانب والشبع في جانب آخر ..

● أغلبية المصريين فطنت وأيقنت أن من يطلب التزامات من مصر يجب أن يقدم التزامات نحو مصر ..

● مصر قد زالت عنها الغفلة بعد طول عنائها ، فلم تعد تقبل من أحد طعاما من الألفاظ الحماسية والعبارات الإنشائية والشعارات الانفعالية .
● فكرة « الحياد » كما أقصدها ليست حتى الآن ، فيما لاحظت ، واضحة تماما في الأذهان ، فالبعض يظنها العزلة السياسية . والبعض يتوهمها المقاطعة الاقتصادية . في حين ألى لا أتصور حرمانى من المشاركة برأى في المواقف السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية بما يتمشى مع اقتناعى بعقيدتى ومصالحتى وأن أرتبط مع غيرى ممن أرى الارتباط به ضروريا في مشاركات دفاعية ومساهمات مالية واقتصادية ومعاونات ثقافية وحضارية . فليس مبدأ « الحياد » كما أريده مجرد تعريفات قانونية

جامدة مما يقرأ في كتب القانون الدولي ، ولكنه « الحياء » الذى نستخلصه لأنفسنا كعلاج لحالة مصر التى تستفز دائما وتستدرج إلى حيث تترك لقمة عيشها وتلقى بنفسها منفعة في موارد هلاكها إلى حد أن أهملت تجديد مأسورة مياة عمرها ثلاثون عاما وتركها تنفجر وتعزل مواصلاتها التليفونية عن العالم ، وهى مشغولة بنكبات الحروب المتلاحقة ..

لا بد إذن من حل يؤمنها ضد الاستفزازات والاستدراجات والانفعالات التى يثيرها في نفوسنا الآخرون صائحين بأنه واجبنا والتزامنا فنفقد عقولنا ونهرع نلقى بأنفسنا في المهاوى ونبقى نحن فيها محطمين ننتظر من يخرجنا منها ، ويطول الانتظار ، والآخرون في شغل عنا بمصالحهم ، كما لو كان من واجبنا نحن والتزامنا أن نبقى مطروحين أرضا ننتظر .. ونظل ننتظر .. وها نحن أولا دائما ننتظر !! ..

● حياء مصرى أو عربى ؟

توفيق الحكيم

أرجو أن تستمر مناقشات موضوع حياء مصر على صفحات الجرائد حتى يتاح لنا نحن المصريين في الخارج متابعتها . ولنسأل أنفسنا هل يكون الحياء مصريا أم عربيا ؟

وأنا أرى أن نتكلم كمصريين عن حياء مصر وأن نترك كل دولة عربية أخرى تحدد مسارها وخطها السياسى بما يترأى لها .
إن مصر الأم وقد كبر أبناؤها في حاجة الآن إلى العلاج من أمراضها

وتدهور صحتها .. ولا أعتقد أن حياد مصر سوف يزيد من فرقة العرب .. فالانشقاق موجود بفضل هؤلاء الذين يثيرونه في لبنان وفي صحراء المغرب وفي قبرص وعلى الحدود المصرية الليبية ..
مهندس حسنين الجمال — لندن

● ● الحرب على الفساد .. قبل الحياد ..

توفيق الحكيم

قبل الكلام عن حياد مصر يجب أن نقوم أنفسنا داخليا .. إن ما نعالى منه راجع إلى ما تعانیه أخلاقياتنا فنحن نسمع عن فضيحة هضبة الأهرام ونجد من يدافع عنها ونسمع عن عويضة والمغربى وأحمد يونس وصفقة البوينج . ونسمع عن أشياء كثيرة ونجد من يدافع عنها وإلى أسأل : ما هي أهمية الحياد أو الانحياز ونحن نسير في هذا الطريق وهل نسينا ما جرى في يونيو ٦٧ ؟ .. أرجو أن تركزوا جهودكم الفلسفية والإعلامية للقضاء على الفساد أولا .. وبعدها يكون لدعوتكم للحياد معناها ..

د . خالد الشاذلى

● ● مصلحة مصر ... أولا ..

توفيق الحكيم

كثير من الحكام يحتفظون بورقة الشعارات يلعبون بها ليقوا في كراسيهم أطول فترة ممكنة . ولكن الرئيس السادات انتهج أسلوبا يخدم مصالح بلدنا العزيزة مصر عندما نادى بالسلام وأيدته الملايين المحبة

للسلام . ولهذا نحن نؤيد فكرة حياد مصر التي طرحتموها بكل مشاعرنا ونختلف مع من يقول إن حياد مصر يبذر الشقاق بين العرب وأنا مع الأستاذ فكرى أباطة الذى قال فى عيد الفن الماضى : إن مصلحة مصر فوق كل اعتبار .

ميشيل جرجس
مصر الجديدة — بالمعاش

• • الطلبة مع الحياد ..

توفيق الحكيم
فكرة الحياد التي طرحتموها تلقى ترحيبا هائلا بين الرأى العام وخصوصا فى الأوساط الطلابية الواعية .. ليس من المعقول أن تستمر مصر فى هذه التضحيات الهائلة فى سبيل العرب ثم يطالبنا البعض بالاستمرار فى هذه التضحيات ونترك أرضنا المحتلة .

محمد نوح — طالب جامعى

• • درس من أسبانيا ..

توفيق الحكيم
ظل هتلر وقتا طويلا يحاول استمالة الجنرال فرانكو لكى تعلن أسبانيا الحرب على الحلفاء . وقال هتلر عبارته المشهورة : إننى أفضل أن يخلع الطبيب لى ثلاث أضراس بدون بنج على أن أناقش هذا الرجل الذى يصر على حياد أسبانيا ..

وليتنا فى مصر تعلمنا من هذا الدرس . وكنا قد وفرنا ٤٠ بليوناً من

الجنسيات وأنقذنا ألوف الأرواح التي ضاعت في الحروب التي دخلناها ..
دكتور بولس صليب غبريال
المحلة الكبرى

● ● مطلوب حياد كل العرب ..

توفيق الحكيم

الوطن العربى به من الامكانيات والطاقات ما يجعل من العرب دولة
عظمى .. ولو تحققت هذه الدولة لأصبحت خطرا يهدد أطماع الدول
الكبرى .. التى تحاول استقطاب الدول العربية بأيدولوجيات مختلفة
تتمزيقها .. والدعوة لحياد مصر من شأنها أن تعزل الجزء الإفريقى من الأمة
العربية عن الجزء الآسيوى منها .. ويزيد من تنافر العرب ويقدم للدول
الكبرى ما تسعى إليه من أطماع دون عناء ..
والمطلوب فى هذه الفترة حياد العرب جميعا .. وليس حياد مصر عن
العرب ..

أحمد إبراهيم الصعيدي
كلية الطب

● ● الحياد .. حل لمشاكلنا ..

توفيق الحكيم

حياد مصر هو العلاج الناجع لمشاكلها التى تراكمت على مر
السنين .. والحياد هو وحده القادر على تحويل مصر من مرتع دائم
للحروب ووكر للخراب إلى جنة وارفة الظلال بعيدا عن الصراع الدائر

حولها .. والحياد سيكون الحصن الواقى لمصر من التناقضات السياسية والاجتماعية فى نظم الحكم التى تحيط بها . والحياد سيجعل مصر لأبنائها بكل خيراتها .. وهو أمل كل شاب مصرى يحب مصر .

محمد أمين عبد المنعم
مأمور ضرائب — جرجا

• • حتى يعود الرخاء ..

توفيق الحكيم

فكرة الحياد التى طرحتموها ضرورية الآن لمصر حتى تنهض وينعم شعبها بالرخاء مثل جيراننا العرب .. ويؤلمنى أن بعض العرب لا هم لهم حاليا إلا المهجوم على مصر وشعبها فى الصحف والإذاعات . بل إن بعضهم يعاملون أبناء مصر بطريقة لا تليق ويعطونهم أرخص الأجور .
إننا نريد أن نحرر أراضينا وأبناءنا من هذا الظلم .

محمد عبد الوهاب المراكبى
أخصائى اجتماعى — الرياض

• • حان الوقت لتحرك ..

توفيق الحكيم

حان الوقت أن تنفض مصر عنها هذا الغبار .. وأن تأخذ بالأسلوب العلمى حتى نلحق بقطار الحضارة .. وحان الوقت أيضا أن يناقش مجلس الشعب فى دورته الحالية فكرتهم عم حياد مصر لاتخاذ القرار المناسب من

أجل مصر . وكفانا امتهاننا وإذلالا ..

أنيس ميخائيل رزق

مدير التدريب بوزارة التعليم

(سابقا)

● ● لن نسمح بذلك مرة أخرى ..

توفيق الحكيم

دعونا نردد دائما أن مصر للمصريين . وما نعانیه الآن هو حالة فقدان
للذاكرة وانفصال عن ماضينا العريق وحضارتنا التي ترجع إلى ٧ آلاف
عام .. ولا يجب أن نسمح لأحد أن يجعلنا ننسى تراثنا مرة أخرى وبالذات
في مرحلة التحول الخطيرة التي نعيشها الآن .. وأرجو أن تستمروا في
الدعوة لحياة مصر حتى لو تطلب الأمر إنشاء حزب ينادى بهذا الحيايد .

عصام عوض

طب عين شمس

● ● حرام أن تضيع مصر ..

توفيق الحكيم

سلوكنا مع أنفسنا ومع إخواننا العرب خطأ في خطأ . ولنتذكر المثل
القائل : من ذلك الذى يترك ميتة في داره ويذهب ليشيع ميت
الآخرين !؟ .. إن مشاكل إخواننا العرب كثيرة . ونحن أيضا لدينا

— ١٠٥ —

مشاكلنا التي ينوء عن حملها الجبل .. وحرام أن تضيق مصر في هذه
المتاهات ..

بطرس فرج
من أبناء مصر

• • لا أوافق على الحياد ..

توفيق الحكيم

عالم اليوم لا يوجد فيه ما يسمى بالحياد .. وحياد سويسرا المزعوم لم
يكن نابعا منها وإنما مفروض عليها من ألمانيا . ونفس الشيء حدث مع
النمسا .. فقد فرضوا عليها الحياد أيضا .. وكيف يمكن أن ندعو لحياد
مصر في هذه الظروف المصيرية الحرجة في حياة مصر وحياة الأمة العربية
كلها .

محمد الأمير شاكر
مجلس محلى كفر الدوار

• • لماذا سكنت الأحزاب ..

توفيق الحكيم

لا شك أن دعوتكم لحياد مصر تلقى القبول والمؤازرة لدى ضمير
أفراد الشعب المصرى .. وقد ترددت هذه الدعوة من قبل ولكن الحاكم
الأوحد أخذها فورا .. وكان عظيما منك أن تجهز بها .. وللأسف أى
حزب من أحزاب مصر الحالية لم يتضمن برنامجها الدعوة لحياد مصر ..

وأرى قيام رابطة تشكّل المؤيدين لدعوتكم لنشرها ..

طه زين الدين

مدير البحوث بوزارة التعليم

● ● المصريون ليسوا عربا ..

توفيق الحكيم

المصريون ليسوا عربا .. وإنما هم من أصل عرى .. ولم نسمع أن
الاستراليين يقولون إنهم إنجليز لأن غالبيتهم من أصل إنجليزي وعندما
تسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه مفاتيح القدس . تسلمها بوصفه أمير
المؤمنين وليس أمير العرب ..

على عز الدين إسماعيل

محاسب — مصر الجديدة

العروبة : بين الوحدة والحياة

١ — الشعور :

أردت بعد الحرب العالمية الثانية وبالتحديد في عام ١٩٤٩ أن أسافر إلى فرنسا . و جهزت أوراقى . ولم تبق سوى تأشيرة القنصلية الفرنسية . وإذا بالقنصل الفرنسى يرفض إعطائى هذه التأشيرة لدخول فرنسا . فذهبت إليه أستطلع السبب ، فأخرج من درجه ملفا وجعل يعدد لى تهما قائلا :

— أنت فى عام ١٩٤٣ كتبت مقالا عنيفا ضد فرنسا بعنوان « خيبة أمل » قلت فيه إن أملك خاب فى فرنسا التى تطأ بأقدامها استقلال شعب صغير ... الخ فتذكرت المناسبة .

كان ذلك على أثر اعتداء السلطة الفرنسية فى بيروت على كرامة لبنان واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزرائه ونوابه !.. فقلت للقنصل : — ألا يستحق مثل هذا الاعتداء على شعب شقيق أن أكتب فيه مثل هذا المقال ؟

فلم يلتفت القنصل إلى كلامى واستمر ينظر فى الملف ويقول : — ثم حدث بعد ذلك أنك أهنت فرنسا برد نيشان فرنسى إليها كانت قد أهدها إليك بمناسبة ترجمة مؤلفاتك إلى الفرنسية عام ١٩٤٨ ..

وهنا تذكرت أيضا السبب . وكان على أثر اعتداء فرنسا على تونس ، وكانت مذابح وضحايا فتكونت في مصر لجنة من الهلال الأحمر لتذهب إلى تونس بالأدوية اللازمة للجرحى ، وإذا بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء .. فقلت للقنصل :

— ألا تريد منى أن أغضب لمثل هذه الاعتداءات على شعوب هي لنا بمثابة الشقيقات ؟ ...

ومضت الأيام وتذكرت ذلك فتعجبت لنفسي ... ما الذى كان يغضبني كل هذا الغضب إلى حد مخاصمة فرنسا التى أحبها ؟ أنا لم أكن يوما من حملة الشعارات لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية . إنما أنا أتصرف دائما من وحي شعورى التلقائى ونظرتى الخاصة إلى الأمور . إذن غضبائى صادقة ، لأنها نابعة من داخل نفسى ، ونظراتى خالصة لأنها صادرة من تقديرى وحدى . وما دمت دائما صادقا مع نفسى وهى المنبع عندى فالأمر إذن حقيقى . وإذا كنت أغضب تلقائيا لما يمس أى شعب عربى ، فمعنى هذا أنه لا بد أن يكون هناك شيء مشترك . وعندما أقول إني اسمى هو « توفيق الحكيم » فإن كلمة « الحكيم » هى الاسم المشترك الذى يقاسمنى فيه أبى وابنى وشقيقى . ولكن اسم « توفيق » هو شخصيتى أنا ووجودى أنا وتجارى وقدراتى وعيولى وظروفى ... لن أتخل عن اسم « توفيق » الذى هو نفسى . ولا أنسى « الحكيم » الذى هو اسم « الأسرة » التى أنتمى إليها .. اللقب هو الانتاء والاسم هو « الشخصية » ... وعندى إن الوحدة العربية كالوردة نجها

ونشمها ولا نفر كها بأيدينا . هذا ما كتبته ونشرته في كتابي « رحلة بين عصرين » عام ١٩٧٢ ...

غير أني في الثلاثينيات ، وبالتحديد في كتابي « تحت شمس الفكر » كتبت أقول : « سألني سائل عن رأيي في الوحدة العربية فأحلته على آرائي السابقة وقلت له إنني لم أغير موقفى . فأنا على الرغم من رغبتى في تكوين شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من الأمم العربية والشرقية فإنني أحب أن نتذكر دائما أننا إزاء الغرب لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغي أن نحافظ عليها . فأوروبا اليوم في « الثلاثينيات » عندما تبين لها خطر الحروب التي تقوض المدنيات ، قد ارتاعت وأرادت أن تحافظ على مصير ما تسميه « الروح الأوروى » . ونحن الشرقيين والعرب لنا من غير شك كذلك ما نستطيع أن نسميه « الروح الشرقى » والعربى . إن طابعنا الفكرى وطريقة نظرنا إلى الأشياء وتقاليدها وإحساسنا بالجمال الذهنى وأسلوبنا في التعبير عن حقائق الأشياء ... كل ذلك ينم عن عقلية خاصة وعبقرية مستقلة ... يجب أن نبحث عنها وننميها ... فإذا نادى بالوحدة العربية فإنما ذلك لندعم كتلة « الروح الشرقى والعربى » أمام كتلة الروح الغربى والأوروى .

٢ — الثقافة

« وليس معنى دعم الروح الشرقى والعربى » هو حبس تفكيرنا في حدود قومية ضيقة . بل هذا الدعم لن يأتي إلا إذا عطف كل بلد من بلاد العرب على نفسه في أول الأمر ليستخرج من بطن الأرض التي يحيا عليها كل كنوز ماضيها .

حتى إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلئ القديمة مجلوة منزوعا عنها التراب صب ذلك الثراء كله في معين واحد مشترك وقدم إلى الإنسانية باسم « الثقافة الشرقية العربية » وذلك بعد أن تكون هذه الثقافة العربية قد ضمت إلى حصيلتها وكنوز ماضيها تلك الثروة الطائلة الهائلة في الثقافة الأوروبية التي صنعت حضارة أوروبا ... فهذه الحضارة الكبيرة لم تنبع فقط من داخل ذاتها بل من قطوف ثمار أشجار الفكر البشري في كل مكان وزمان . فالحضارة الأوروبية لم تخلق بيدها خلقا كل هذه القوالب المعروفة في آدابها وفنونها بغير ينابيع قديمة ، ولا كل هذه النظريات الشائعة في فلسفتها وعلمها بغير جذور .. فإن كثيرا من هذه القوالب والنظريات مأخوذ عن الشرق في حالته الأولية وخاماته البدائية ، ولكن الأوروبيين نفضوا عنه تراب القدم وزادوا عليه من فكرهم وأضافوا إليه من قدراتهم وأخرجوه ممهورا بأمضائهم ومطليا بشخصيتهم . وهذا في الواقع عمل كل حضارة من الحضارات . ولا نستثنى منها الحضارة الإسلامية نفسها في عصورها الزاهرة حيث جمعت ثقافات وحضارات الأمم الأخرى بما صبه الإسلام في قلبه وجعل منه لونا مميزا وطابعا خاصا .. فلتتخذ الثقافة العربية والإسلامية إذن في عصرنا الحاضر قدوتها من الإسلام نفسه في عصره الزاهر . ووسيلتها الفعالة هو سلوك الطريق الذي سلكته جميع الحضارات المعروفة بما فيها الحضارة الإسلامية ، وهي القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق » . ولا يغنى التلخيص والترجمة الدقيقة الشاملة . لأن العرب اليوم بإزاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن عصر النهضة الذي تلا القرون الوسطى في أوروبا قام على حركة ترجمة

للمؤلفات الإغريقية ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة في عصورها
المجيدة قامت على حركة ترجمة للمؤلفات الهندية والفارسية والإغريقية ،
كذلك نهضة الثقافة العربية في عصرنا الحديث يجب أن تقوم على حركة
ترجمة منظمة واسعة شاملة دقيقة آمنة لكل ثمرات النشاط العقلي ونتاج
الفكر والوجدان في الحضارات الكبرى المعاصرة . لأن مجرد صلب هذه
الثروات الحضارية العظيمة في لغتنا العربية فيه إحياء وإنماء لهذه اللغة
الكريمة التي بها نعيش وترتبط أمم العروبة .

* * *

هذا الكلام كله لم أكتبه اليوم . بل هو مكتوب في الثلاثينيات ومنشور
في كتابي « تحت شمس الفكر » الذي صدرت طبعته الأولى عام
١٩٣٨ ...

٣ — الواقع العربي

إذن ما الذي حدث ؟ هل أنا غيرت رأبي في العروبة ؟ أو أن العروبة
التي تغير موقفها ؟ .. أما فيما يختص بي فأنا لم أغير شيئا . فشعوري السابق
هو نفس الشعور اليوم وغدا . وأما الثقافة العربية في حاضرها ومستقبلها
فهو رأيي دائما بالأمس واليوم وغدا ... فمشاعر التعاطف في النوائب لم
تزل في القلوب ... والآمال في نهضة الحضارة العربية لم تزل في النفوس ..
ولكن الذي تغير هي أوضاع الدول العربية . فبعد أن كانت متقاربة في
أحوالها تقريبا من حيث خضوعها كلها لذل الاحتلال وضالة الاقتصاد
إلى حد أن كنا في شبابنا نسمع في كل موطن عربي عبارة « كلنا في الهم
شرق » ... أصبحت الدول العربية اليوم مقسمة إلى دول بعضها مشغول

بمضاعفة ثرائه وبعضها مهموم بعلاج إفلاسه . وبعضها مشغن بجروح حروبه . وبعضها يرتع معافى في أمانة . وبعضها يفكر في مؤتمرات سلامه وبعضها يفكر في مؤتمرات بتروله ... وهكذا على الرغم من وجود مشاعر العطف والتعاطف فإن الاهتمامات والمشاغل لم تعد متجانسة :... كما أن الميول والعقائد السياسية لم تعد في اتجاه واحد ... لذلك كله كان من الواجب على المفكرين العرب أن ينظروا بعمق في هذا الوضع الجديد للأمة العربية . وإذا كانت أمنا مصر التي أكلتها الحروب المتلاحقة قد احتاجت إلى راحة وإلى سلام ترم فيه قواها المحطمة ورأيت ورأى بعض أبنائها أن تدخل مصحة « الحياض » لتسترد صحتها ففسرت الكلمة البريئة على أنها انعزال وانسلاخ وغير ذلك من الشطط المؤسف في التفسير ، فلنلجأ إذن إلى الوقائع الملموسة المحسوسة لنلتمس فيها الرأى الصريح .

(أ) ولنبدأ بالجامعة العربية :

هذه الجامعة التي أنشئت في أعقاب الحرب العالمية الثانية وأوضاع العرب على ما كانت عليه في ذلك الوقت هل بحثت بعين جديدة هذه الأوضاع الجديدة لدول العرب بما يكفل سيرها في طريق التضامن الحقيقي نحو السلام والرخاء للأمة العربية جمعاء بالتقارب في مستوى المعيشة والتجانس في النظرة والعمل للهدف الواحد ؟؟

(ب) إذا عقد مؤتمر السلام في جنيف .. وحضره بعض الدول

العربية ورفض الحضور البعض الآخر فماذا يكون الحل ؟ وإذا حضر الجميع ورفض البعض شروط الاتفاق ، وقبلها البعض الآخر فماذا يكون

الحل ؟ وإذا كانت شروط الاتفاق ترضى البعض وتلائم وضعه ويرفضها البعض دون ضرر مؤكد أو جسيم يلحقه . فهل يرفض الاتفاق كله وينهار السلام ، أو تحقق الأمة العربية في جدية الرفض وتنظر في المبررات وفيما هو أعدل : رفض تحرير الجزء ورهنه في انتظار الكل ؟ أو قبول أى تحرير مع السعى للباقي ؟ ..

(ج) هل يمكن إنشاء هيئة تحكيم من بين الدول العربية تستطيع أن تنظر بكل عدالة ونزاهة في التصرفات التي تصدر من أى دولة عربية وفيها ما يعتبر ماسا بكرامة العرب أو خادشا للانتماء العربى ، وليس من الضروري توقيع جزاءات بل يكفى النصح ولفت النظر ؟ أو أن أى دولة عربية تستطيع أن تفتري كما تشاء فتضر غيرها من دول العروبة أو تضيع عليها مصلحة أو تحول دون حصولها على منفعة أو أمن أو سلام دون مبرر مقبول ؟ .. إن مبدأ التحكيم والتصالح معروف ومأخوذ به حتى في قبائل البدو التي تعيش في الخيام ؟ إذا لم يكن إنشاء هيئة تحكيم عربية سواء في صورة محكمة عدل عربية مثل محكمة لاهاى أو على أى صورة أخرى تتيح النظر في خلافات العرب وتحمى التضامن العربى فلماذا إذن نردد دائما عبارات الوحدة العربية والتضامن العربى ، ولا نفعل شيئا إيجابيا في هذا السبيل ؟ .. هذه هي الوقائع الملموسة والقضايا المحسوسة التي لا بد للعرب والجامعة العربية من مواجهتها بشجاعة بدلا من الاجتماعات التي تعقد وتنفض وتبقى الانقسامات على حالها ... في هذا فليتكلم المتكلمون وليبحث الباحثون واضعين في اعتبارهم مصر الجريحة المحطمة المحتاجة إلى ترميم ..

كلمة أخيرة .. لا أخرى

هذا هو معنى الحياد الذى أطالب به

لست ممن يحبون الرد على رأى لى إلا فى أضيق الحدود، حرصا منى على أن يكون للرأى المخالف كامل الحرية ، وبذلك نستفيد من عرض كافة الآراء .

ومسألة « الحياد » التى تناولتها ليست مسألتى الشخصية حتى أغضب على من يخالفنى الرأى فيها ، بل العكس هو المطلوب عندى .. وهو أن يتسع المجال لكل الآراء ، حتى تتضح الرؤية من كل الزوايا . لأن المصلحة هنا هى مصلحة الوطن كله .. بل مصلحة العرب أيضا معنا .. ولا غضاضة عندى أن أرجع عن رأى أو أصححه إذا اقتضت بضرورة ذلك للمصلحة العامة .. ولكنى فى هذه المرة ، وعلى أثر اطلاعى على مقال نشر فى « الأخبار » للأستاذ عبد اللطيف عبد الكريم .. الذى ذكرنى بأسلوبه العف الودود بما يحمله لى العالم العربى من مودة ومحبة ، مما جعلنى أتذكر بالفعل أن كتابا لى يدرس فى مدرسة لدولة عربية شقيقة ، فقلت فى نفسى : ما الذى سوف يقع فى نفوس التلاميذ وما سوف يقوله لهم مدرسههم ؟ أسيقول لهم : « هذا المؤلف لهذا الكتاب الذى تحبونه لا يحبكم ويريد أن يعزل ببلده عنكم ! .. » عندئذ قلت لنفسى : « يا ولى من تحريف الآراء وانحراف المقاصد ؟ .. » هل أنا قصدت ذلك ؟ مرة أخرى

وأخيرة أصبح بملء فمى ، ولن أكررها ، ولن أكتب في هذا الموضوع مرة أخرى ، لكثرة ما قلت وكتبت وردت كل الأقلام على رأى الذى ليس هو رأى .. رأى مرة أخيرة وأصبح به الآن هو :

إن الحياد هنا هو سياسى وعسكرى محض فى ظرف خاص بالذات : هو هل إذا تقرر حرب تترك مصر لتتجارب للعرب ؟ .. وهل إذا تقرر سلام يلاحظ فى هذا السلام مصلحة مصر ؟ أو يقال لها اتركى الخصم يحتل أرضك ما دام لم يوافق على مطالبنا كاملة ؟ .. هذا هو السؤال الذى يتجنب الإجابة عنه أكثر الذين كتبوا .. ما هو الوضع الحقيقى لمصر بين الحرب والسلام ؟ .. ذلك أن مصر ممنوعة منعاً باتاً من حل مشكلتها إلا إذا حلت مشكلات الجميع .. مع إن مشكلتها هى الأبسط حلاً .. وهى مع ذلك — وهو الأمر والأنكى — تتحمل الشتائم والإرهاب والاعتقال إذا هى حاولت أن تجتهد فى حل يرفضه الآخرون من الأشقاء .. كل ما كنا نطمح فيه أن يكون الاجتهاد فى الحل محل أخذ ورد بالحسنى ﴿ وجاد لهم بالتى هى أحسن ﴾ وليس بهذا الذى قبولنا به .. ثم كيف يكون الحال إذا اتضح أن من بين الأشقاء من لا يريد حرباً ولا سلاماً .. أى لا يريد حلاً على الإطلاق ويتمهم بالخيانة من يسعى إلى حل ؟ .. هذا وحده هو لب الموضوع .

أما الرد على الحياد بأنه انعزال فهذا خطأ كبير وربما كان المسئول عنه الكلمة من الجهة القانونية .. ذلك أنى أقول وأردد وسأردد دائماً وافهمونى جيداً أيها العرب فى كل مكان :

إن ارتباطنا الاقتصادى والثقافى يجب أن يزداد قوة .. وإنه لهُ يوم
الحلم الجميل لنا جميعا ، يوم أن يتم التكامل الاقتصادى .. والتناسق
الثقافى .. والتعاون الاجتماعى ... بيننا جميعا بما يحقق للعرب الأشقاء هذه
الوحدة المثمرة وهذا الترابط الأخرى المفيد لنا كأمة لها مجد قديم .

* * *

إذا شكك أحد فى رأى هذا .. أو انحرف به ، فالذنب ذنبه ، وليس
ذنبى ولا ذنب رأى .. وأشهد على ذلك رلى وبلدى والعرب الأشقاء
أجمعين ..

يجب أن نحدد موقفنا أولاً ..

ترجع الأحداث الأخيرة ، وما يترتب عليها من نتائج إلى مجموعة متشابكة من العوامل أو الظروف .. ترجع في رأيي إلى اتساع الهوة بين ما يريده وما يأمل فيه الشعب وما تنفذه الحكومة .. وهذا هو أخطر شيء يمكن أن يهدد أمتنا .

ونحن هنا يجب أن نتساءل : ما هي وظيفة نائب مجلس الشعب ؟ هل هي مجرد التمثيل فقط في المطالبة بحقوق الشعب ؟ أم هي صراخ وتهليل ؟ مهمة نواب مجلس الشعب في رأيي أكثر وأكبر من هذا بكثير .. فعليهم أساساً أن يكونوا مرآة حقيقية تعكس آلام ومتاعب ومطالب الجماهير التي يمثلونها .. ولذلك رأى الجمهور أن نوابه فشلوا في المطالبة بحقوقه .. وتصوير متاعبه . ومن هذا الإحساس قاموا بأنفسهم ليطالبوا بحقوقهم .. ويصوروا متاعبهم بأي صورة من صور الشغب .

* * *

واليوم أصبح لزاماً علينا أن نحدد موقفنا .. هل نحن بلد إسلامي أم لا ؟ وإذا كنا كذلك فلماذا نسمح بأي تخريب شيوعي لبلدنا .. وهذه هي مهمة أعضاء مجلس الشعب بكامل أعضائه .. أن يهتموا كما قال شيخ الأزهر بمتاعب الشعب وعكس ما يريده .. وهذا لن يتحقق إلا بالنزول إلى الناس .. ومناقشتهم .. وسماع متاعبهم ..

* * *

ميزانية الدفاع :

● والحل .. ١٩

على الدول العربية أن تتحمل ميزانية الدفاع .. فليس من المعقول أن تتحمل مصر وحدها ميزانية الدفاع عن الوطن العربي كله . في الوقت الذي لا تعرف فيه بعض الدول أين تنفق أموالها ! إننا هنا نطالب بحقتنا ، ولسنا نطلب مساعدة . بل يجب علينا إزاء رفض بعض الدول العربية المشاركة في ميزانية دفاع مصر .. أن نعيد النظر في علاقتنا بهم . وهذا لمصلحة مصر فقط .. ولمصلحة شعب مصر وحده .

ترشيح الاستهلاك :

● هذا بالنسبة للحل الخارجي ..

أما الحل الداخلي .. فلن يكون إلا بزيادة الإنتاج مع الجدية في العمل ولا داعي بعد ذلك لمخاطبة الشعب بالأرقام السرية وغير السرية ، إنما يجب مصارحته بكل الحقيقة وبمنتهى الصدق .

المنبع في الدين

يسألني الكثيرون لماذا أخرجت أخيراً هذا المجلد الضخم لمختار التفسير الكبير للقرطبي الجامع لأحكام القرآن الكريم ؟ وإني أقول بالإضافة إلى ما جاء في مقدمة هذا الكتاب أن حاجتنا إلى معرفة أصول ديننا وتشريعه في هذا الوقت توجب علينا الاتصال المباشر بالمنبع . وهذا المنبع هو القرآن الشريف ، وهو محتاج إلى تفسير ، والتفسير يقع في مجلدات ، تصل عند القرطبي إلى عشرين جزءا . وهى على هذا النحو عسيرة التناول على أكثر الناس .

وحتى عند أغلب المتخصصين تؤخذ عند الحاجة على أنها مرجع أكثر من أن تعتبر كتابا للقراءة المتصلة . ولذلك كان من الضروري حصر هذه المجلدات العشرين في مجلد واحد ضخيم يجمع بين دفتيه « ما لا بد لكل متدين وقارئ للقرآن ولكل راغب في الاتصال بأحكامه وبلاغته من معرفة منبعه وفهمه لكثرة استعماله وجريانه على الألسن ، وخاصة في أيامنا هذه التى ظهرت فيها الرغبة على أشدها في الرجوع إلى مصادر الدين » .. بل أيضا في الوقت الذى كثر فيه الحديث عن الشريعة الإسلامية والرجوع إليها كمصدر للتشريع .

فمن منا إذن لا يريد أن يعرف من واقع المنبع الأصلي حقيقة ما جاء خاصا بالقصاص والقتل والسرقه والربا والخمر والزنا ورشوة الحاكم

والحكم والتجارة . وفي الصلاة والزكاة والحج والعمرة والشك والإيمان
والقدر والحذر والحكم لغير المسلمين وحق الفقراء والمساكين والتوبة
والصدقة والزينة والمأكل والمشرب والفنون التشكيلية والنظر إلى الكون
والتدوين للعلوم بالكتابة وفي خلافة المرأة وفي تبرج النساء وفي المساواة في
الرزق وفي أن أمرهم شورى وفي الزواج والطلاق وفي القلم والعقل
والعلم والعلماء .. الخ . ونحو ذلك كثير مما يدل على أن الدين قد تناول ما
يجرى في حياتنا الإنسانية تناولاً شاملاً .

* * *

على أن أهم ما نجده في هذا المرجع للمنبع هو هذه المناقشات ومختلف
التفسيرات لهذه الأحكام بين جلة العلماء وأئمة المفسرين ، حيث تتجمع
الآراء وتختلف وتتفق وتفترق ، وكأننا في مجلس من المجالس التشريعية التي
تناقش فيها القوانين والأحكام على الملأ . مما يطلع القارئ على كل جوانب
القضية وعلى عديد الحجج ، كما يؤكد له أن كل قضية من القضايا وكل
حكم من الأحكام قد نوقش بحرية في الرأي تثير العجب وسعة في العلم
وقوة في الحجة تثير الإعجاب .

* * *

كل هذا مما جعلني أقنع بضرورة الرجوع إلى المنبع للخروج بمحصلة
من الحقائق المباشرة عن الدين من منبعه دون تدخل أو وساطة من وصف
أو تعليق . وهذا ما حرصت عليه كل الحرص بعدم تدخل بحرف واحد في

هذا المختار لتفسير القرطبي الكبير لأحكام القرآن .
ولقد كنت من مبدأ الأمر أريد استخراج هذا المختار لنفسى رغبة منى
فى الاستعانة به على الوصول إلى الاقتناع من واقع الأصول وحدها .
ولكننى وجدت من المنفعة العامة أن أشرك معى غيرى فى الانتفاع من هذا
المورد الميسر . ولعلى بهذا أكون قد أجبت عن سؤال السائلين .

فقه الشريعة : بين الجمود والتغير

تعقياً على المقال المهم للعالم الدينى الجليل الشيخ الدكتور عبد المنعم النمر ، المنشور فى الأهرام بعنوان : « على أبواب تقنين الشريعة » ، وأثار إعجاب الكثيرين من المستنيرين ، واستيضاحاً لما نبهت فيه اليوم من وجوب تطبيق أحكام الفقه الإسلامى فى قضائنا ، خطرت لى أسئلة عن منشأ هذه الأحكام الفقهية الإسلامية فى المجتمع الذى ظهرت فيه أول مرة ، والمسار الذى سلكته هذه الأحكام من مبدأ العمل بها إلى ما انتهت إليه اليوم .. وهل هى قد زالت كلها تماماً فى مجتمعنا الحاضر ؟ .. أو بقي منها شيء .. ففى القانون المدنى ماذا أبقي ؟ .. وماذا أهمل ؟ .. وكذلك فى القانون الجنائى والقانون التجارى ؟ .. كل ذلك لابد فيه من إحصاء دقيق واضح تحت نظرنا ، حتى لا تلوك الألسن بما تتناقله الإشاعات والشعارات ، بعيداً عن أسس العلم اليقينى ، والأمانة العلمية التى كان يعرفها ويمارسها السلف الصالح فى عصور الإسلام الزاهرة .. ومعاونة منى فى التمهيد لهذه البحوث ، أعرض فيما يلى بعض أمثلة الجرائم يتحدث اليوم عنها الناس ، ولا يعرف أكثرهم منشأ العقوبة فيها :

فى السرقة :

ففى جريمة السرقة مثلاً وعقوبتها ، كما جاء بها القرآن الكريم ، فى الآية

الشريفة من سورة المائدة ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ .. كيف كان مصدرها ؟.. إذا رجعنا إلى كتب التفسير ، وعلى وجه التحديد تفسير القرطبي ، وجدنا ما نصه : وقد قطع السارق في الجاهلية وأول من حكم بقطعه في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، فأمر الله بقطعه في الإسلام .. فكان أول سارق قطعه رسول الله ﷺ ، في الإسلام من الرجال الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف .. ومن النساء مرة بنت سفيان بن عبد الأسد من بني مخزوم .. وقطع أبو بكر يد الرجل اليمنى الذى سرق العقد (عقد الأسماء بنت عميس زوج أوى بكر الصديق رضى الله عنه فقطع يده اليسرى) ..

والسؤال هنا هو : هل الواقعة تسبق التنزيل ؟.. بمعنى أن واقعة كواقعة السرقة حدثت في المجتمع الجاهلي وعوقب عليها بقطع اليد ، ثم حدثت الواقعة في المجتمع الإسلامى ، فأخذ بنفس العقوبة ، فهل لنا عندئذ أن نفهم أن التنزيل يأتي بعد وقوع الواقعة ، تأييدا أو تعديلا ، تبعا لمقتضى الحال ... ؟

في الزنا

كذلك في جريمة الزنا ، نزلت الآية بقوله تعالى : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ .. ولم يأت ذكر للرجم .. ولكن ، في صحيح مسلم ، عن البراء بن عازب قال : مر النبى ﷺ بيهودى محمما (أبى حنيفة) بالفحم (مجلودا ، فدعاهم (أى دعاهم مع المجلود من اليهود) وسأله : « هكذا تجدون حد الزانى في

كتابكم » ؟ .. قالو : نعم .. فدعا رجلا من علمائهم فقال له : « أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم » ؟ .. قال : لا .. ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، نجده الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا فكنا إن أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، قلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم » .. فقال رسول الله ﷺ : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » فأمر به فرجم ..

* * *

وجرى فى هذا كلام كثير عن الحكم الذى ينزل به القرآن ، وتأتى سنة الرسول بحكم آخر .. وليس هذا موضوعنا هنا .. إذ ربما كان من الممكن القول أن الله يعتبر الكتب السماوية كلها نابعة منه تعالى .. وإذا كان الرجم قد جاء فى التوراة ، ولم يجرى فى القرآن ، فهو على كل حال مما جاء به كتاب سماوى ، وهو ما ذكره النبى الكريم بقوله : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه » .. ولكن موضوعنا الأساسى هنا هو أن شريعة الله فيما رأينا لا تنزل فى فراغ ، إنما هى تنزل فى قضية طرحت فى واقعة حدثت .. وعندئذ جاز لنا أن نبحث فى الفترة بين حالتين : حالة وقوع الحادثة وطرح قضيتها ، وحالة نزول الآية بالحل المؤيد أو المعدل .. فإذا كان الأمر كذلك فمعناه ومغزاه أن الله تعالى يترك لرسوله وللناس فترة يفكرون فيها لأنفسهم بأنفسهم من واقع ظروف حادثتهم ومقتضيات حياتهم قبل أن ينزل لهم الآية بالهداية ...

* * *

وعندئذ يكون هذا درسا لنا بأن الله ، سبحانه وتعالى إنما خلق لنا عقولا لتفكير بها في شئون حياتنا ، خاصة والقرآن يحض الناس على أن يفكروا بأنفسهم لأنفسهم ، وينهاهم عن اتباع ما عند أسلافهم اتباعا أعمى ، دون تفكير ..

إذن أحكام الله لم تنزل سابقة للواقعة ومفروضة فرضا مسبقا لقضية لم تطرح ، بل هي تنزل بعد حدوث الواقعة ، وطرح القضية ، وإتاحة الفرصة والوقت للناس ليفكروا فيها ويستنبطوا الحلول الملائمة لظروف حياتهم ...

وليس لهذا صلة طبعا بمسألة الإرادة الإلهية المكنونة في الغيب الذي يعلمه الله ، ويقع في تقديره منذ الأزل ...

فهذه مسألة أخرى ليست هي مسألتنا الآن .. إنما المسألة هنا تتعلق بأحكام الفقه الإسلامى وتفكير الناس .. وإرادة الله تعالى في أن يترك لعباده فترة اختيار يجتهدون فيها طبقا لعقولهم الحرة .. فهل الأمر يجرى على ذلك ، أو على غير ذلك ؟ .. هذه مسألة مهمة وخطيرة ، ليس من حقى البت فيها ، ولكن من واجبى طرحها لبحث الباحثين من فضلاء علماء الدين وأصحاب العقول المستنيرة من المؤمنين ، لأن عليها تعتمد قضية الاجتهاد للملاءمة بين فقه الشريعة وأوضاع المجتمع المتحرك في زمان جديد وظروف جديدة ..

وترتبط بقضية الاجتهاد قضية الثابت والمتغير في أحكام الدين .. والسؤال عندئذ هو أين يكون موضع الثبات ؟ .. وأين يكون موضع التغير ؟ .. ولكى يتمكن من الإجابة يحسن أن نقسم الإسلام إلى قسمين :

الإلهيات وهى علاقة الإنسان بالله تعالى .. والإنسانيات ، وهى علاقة الإنسان بالإنسان. فالقسم الأول وهو الإلهيات لا ريب فى أنه ثابت أبداً ، ثبات الإيمان بالله تعالى الثابت الوجود فى كل زمان ومكان .. أما القسم الثانى ، وهو الإنسانيات ، فإنه يتحرك بتحريك الإنسان ، ويتغير بتغير مجتمعه .. ويسرى عليه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ...

ومن هنا تنشأ القضية التى يتحتم علينا بحثها اليوم ، وي طرح السؤال الذى يتطلب الإجابة عنه فى وقتنا الحاضر ، وهو : هل الأحكام المتعلقة بالإنسانيات وكانت تلائم الإنسان فى زمن معين ، وفى مجتمع بالذات يمكن أن يغيرها الإنسان بما تلائمه فى زمن آخر ومجتمع آخر ؟!

ويرتبط بموضوع الملائمة ، والأخذ بما لم يكن موجوداً فى الأصل ، ما جاء فى القرآن الكريم نفسه من كلمات لم تكن من لغات العرب ، مثل « قسورة » ، أى الأسد بلغة الحبشة ، و « القسطاس » ، أى الميزان بلغة الروم ، و « السجيل » ، أى الحجارة والطين بلغة الفرس .. ونحو ذلك .. وقال فى هذا بعض الأئمة أن حقيقة الأمر هى أن هذه الكلمات فى الأصل أعجمية ولكن العرب استعملتها وعربتها ، فهى عربية بهذا الوجه .. ومعنى ذلك أن الله تعالى يقر أن ينتفع الإنسان العربى بما يلائمه ويصلح له عند غيره من الأمم فى اللغة وغيرها .. وهذا ما حدث أيضاً يوم أخذ النبى ، صلوات الله وسلامه عليه ، عن الفرس حفر الخندق فى غزوة الخندق ... أى أن الشىء المستورد من بلاد وشعوب أخرى مقبول الأخذ به إذا كان صالحاً وناقعاً للمسلمين ...

إذا كان الأمر كذلك ، فقد انتفت عن المجتمع الإسلامى تهمة الجمود والعجز عن ملاحقة ركب الحضارة والتقدم فى عالمنا المتحرك بكل جديد يفيد الإنسانية .. كما يتنفى الرأى القائل بأن المسلمين وعلماء الإسلام يحبسون أنفسهم وتفكيرهم داخل نصوص جامدة .. كما يتنفى الزعم بأن الإسلام متخلف عن الركب ، مع أنه فى جوهره صالح لكل زمان ومكان .. وهذا الصلاح فيه لكل زمان ومكان ، إنما يأتى من كونه يتسع لاحتواء كل ما يصلح به حال الناس ، تاركا للناس تقدير ظروفهم ، كما قال لهم رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، ذات يوم : « أنتم أدرى بشئون دنياكم » . والله أعلم ...

يا ضرائب قولى لى .. رسالة أم مهنة ؟

الناس تعتبر عمل الكاتب والأديب رسالة ، وأنت أيتها الضرائب العزيزة تعتبرينها مهنة .. وكاتب الأدب حائر بينكما .. لا يدري أهو صاحب رسالة ، وفي هذه الحالة يستجيب إلى كل من يطالبه بنتاج قريحته في صورة أحاديث إذاعية أو صحفية أو تلفزيونية دون أن يتقاضى مليما ، باعتبار أن عمله يعتبر رسالة واجبة لإنارة العقول والنفوس للكافة ، ولكنك أنت أيتها الضرائب العزيزة تريدن منه أن يكون صاحب مهنة حرة مثل الأطباء والمحامين والمهندسين والحاسبين وغيرهم . ومعنى ذلك أن من واجبه أن يتصرف مع الناس كما يتصرف الطبيب والمحامي والمهندس والمحاسب .. أى أن يفعل كما يفعل الطبيب مثلا عندما يأتى إليه مريض ويطلبه بمحادثة أو مناقشة أو استشارة طبية مجانية لوجه الله وللرسالة التى يحملها ، أى رسالة الرحمة والإنسانية .. ولا شك أن مثل هذا المريض سوف يقابل عند باب العيادة بممرض يقول له : ادفع أولا .. فليس عند الدكتور الطبيب وقت للدردشة .. فهنا مهنة حرة تحاسبنا عليها الضرائب .. وكذلك الحال مع المهندس والمحامي والمحاسب .. وهذا أيضا ما كان يجب أن يكون مع الكاتب والأديب ، لولا أنه ليس لديه ممرض ولا وكيل محامى ولا بواب .. والأدهى والأمر أن الذى يأتى ليأخذ وقت الكاتب الأديب وفكره ينشر ذلك الإنتاج فى صحيفة أو مجلة تبيع

نسخها بالنقد .. فإذا طالب هو أيضا بأجر صاحوا في وجهه : عيب يا أستاذ أنت صاحب رسالة .. هذا فيما يتعلق بالصحافة والإذاعة والتلفزيون من حيث الأحاديث .. أما من حيث الإنتاج الفني في صورة قصص وتمثيلات ، فإن الأجهزة الرسمية الحكومية تتاجر بعمل المؤلف المسكين ، فتأخذ عمله بأبخس الأثمان ويعقود إذعانية من موقع قوة ، ثم تبيعه لدول أخرى خارج القطر بألوف الجنيهات وأحيانا بمئات الألوف من العملات الصعبة ، دون أن تتكرم على المؤلف المسكين بنصيب زهيد .. وهو ما لا يمكن أن يحدث مثله لطبيب أو مهندس أو أى فئة أخرى من الفئات التى حشر المؤلف المسكين في زمرتها .. فأنت أيتها الضرائب العزيزة الكريمة لا تفرقين بين هذا وذاك وكله عندك مهنة حرة .. فى حين أن الكاتب الأديب لم يزل دائما فى نظر الناس صاحب رسالة مجانية يجب أن يترفع عن أخذ أجر على مجهوده .. وعليه أن يتعامل مع الخباز والجزار والأسرة والأبناء كأنه من الملائكة التى تعيش بغير طعام وثياب وسكن وأنا — وأقسم بالله العظيم أيتها الضرائب العزيزة الكريمة — لو كنت معفى من الطعام والشراب كالملائكة لما تقاضيت مليما فى نظير أى جهد أبدله .. وأقسم أيضا . بما لك عندنا من إعزاز وإكرام ، إنك لو تفضلت بإعفائنا من أى ضريبة واعتبرت أننا أصحاب رسالة لا أصحاب مهنة لقممت من فوري باعتبارى صاحب رسالة حقا وفتحت عقلى وقلبى لأمنح كل ما فيهما بالمجان للشعب كافة .. ولكن ما دمت تعتبريننى (تحديات سنة ٢٠٠٠)

— ١٣٠ —

صاحب مهنة كبقية أصحاب المهن الحرة من أطباء ومحامين ومهندسين
ومحاسبين .. بل أيضا من سباكين ونجارين وحدادين ، فلا يلمنا أحد إذا
طالبنا بأجر مثل غيرنا من هؤلاء المحترمين الذين يتقاضون الأجور على
مجهوداتهم .. والسلام على من عذرنا ورحمنا ... ونشهد الله تعالى أرحم
الراحمين .

هل الجمهور هو الذى يحدد ملامح المسرح

أم المسرح هو الذى يحدد ملامح جمهوره ؟

قبل بداية عروض مسارح هيئة المسرح التى قدمت أعمالها مجاناً إلى الجماهير : أذيعت كلمة « يوم المسرح العالمى » التى كتبها هذا العام الحكيم .

المعروف أن مصر تشارك العالم هذا الاحتفال منذ ١٥ عاماً بعد انضمامها إلى هيئة المسرح العالمية ومقرها باريس والتى تضم ٣٨ دولة .
وفيما يلى نص كلمة الأديب الراحل الحكيم :

اليوم ، فى هذا العيد العالمى للمسرح ، يطيب لكل محب لهذا الفن أن يتأمل فيه كما يتأمل الإنسان فى يوم عيد ميلاده ما وضعه من الحياة ؟ وما الذى كان فى غابر أيامه أو ماذا سيكون غداً ؟ .. وما القضية التى تشغله فى حاضره ؟ .. ولعل ما يجب التأمل فيه اليوم هو الجمهور ، هل الجمهور هو الذى يحدد ملامح المسرح ؟ أو أن المسرح هو الذى يحدد ملامح جمهوره ؟ .. بعبارة أخرى هل المسرح هو الذى يؤثر فى المجتمع أو أن المجتمع هو الذى يؤثر فى المسرح ؟ .. أو أن كلا منهما يؤثر فى الآخر ويتأثر ؟ ..

إذا اعتبر حال المسرح يشبه حال السلعة فى السوق ، فهو يخضع عندئذ لقانون العرض والطلب ، فيعرض ما يطلبه المشتري . وعندما كان

المشتري نوعا من المثقفين ، كان المعروض في المسرح نوعا من الثقافة ...
فإذا تغير هذا النوع من المشاهدين وأصبح الغالب من طلاب المتعة
السهلة ، اتجه المسرح إلى تقديم كل ما يمتنع هذا النوع من الجمهور .

وقد لوحظ بالفعل في وقتنا الحاضر ظهور نوعية جديدة من الجماهير
نتجت عن اتساع رقعة السياحة بتقدم وسائل المواصلات في العالم ،
فأصبحت أيضا للسياحة مؤثراتها في نوعية العرض المسرحي ، لأن الكثير
من السائحين يطلبون تمضية ليلتهم في المتعة السهلة ، كما ظهرت نوعية
مماثلة من طبقة اجتماعية جديدة لأثرياء جدد لديهم المال الوفير والتشريف
القليل ، يطلبون هم أيضا قضاء ليلتهم في هذا النوع السهل من المتع .
ولهذا تلون المسرح في كثير من بلاد العالم بهذا اللون المرغوب عند هذا
النوع من الجماهير ، لون من العروض المسرحية يمتزج فيها الرقص والغناء
والنقد الاجتماعي المضحك وبعض الإيماءات السياسية المثيرة
والشخصيات الهزلية الشهيرة ، في إطار من التشويق يريح الأعصاب ،
ولا يترك في الذهن أثرا .

على أن بعض البلاد اشتهرت بفسوخ تراثها المسرحي الخالد على
الزمان ، وبامتداد هذا التراث في إنتاج حديث له من القمة الأدبية
الكبرى ، ما يجعل المشاهدين الجدد ، من سائحين أو من طبقات ثرية
جديدة ، تسعى إليه أيضا لإشباع فضولهم أو استكمال تثقيفهم .. فقد
اهتمت هذه البلاد بالعناية بهذا المسرح باعتباره الصورة المشرقة لحضارتها
ومكانتها التاريخية .

إذن ، نحن أمام وجهين للمسرح ، يجب أن يكون لكل منهما دوره في

كل مجتمع حديث .. الوجه الذى يمثل المتعة الجادة والقيمة الباقية للمشاهد الراسخ ..

وبمعنى آخر ، الوجه الذى يعبر عن الظروف الوقتية المتغيرة ، والوجه الذى يعبر عن الإنسانية فى قيمها الثابتة فى كل زمان ومكان . وهذا الوجه الآخر فى ثباته وعمقه هو المنوط به قيادة المسرح نحو الأنفع والأرفع والتأثير فى الوجه الثانى الوقتى . ليرفع مستواه ويضيف إلى إمتاعه عمقا وفكرا .. كما أنه بما له من جذور ممتدة فى أغوار التراث الإنسانى الباقى ، تقع عليه مسئولية بناء الإنسان بقيمه الباقية واستمرار التقدم بالحضارة الإنسانية .

وهذه التبعات الجسام ، هى ما تدعو إلى الاحتفال بيوم المسرح العالمى فى كل عام .. وكلنا أمل أن تزداد قدرة المسرح على أداء رسالته النبيلة فى تقدم الإنسان والإنسانية عاما بعد عام ..

المنبرة

يطيب لى دائما السير على الأقدام فى الصباح ، خاصة فى فصل الشتاء وعلى رأسى « البيريه » أو القلنسوة بالعربى الصحيح . وفى يدى عصا أتوكأ عليها وليس لى فيها مآرب أخرى كما رُب موسى عليه السلام ، ولا ألقى بها فإذا هى حية تسعى ، ولا أمش بها على غنمى . فأنا ليس عندى غنم أرهاها ، ولا سحر أفحم به السحرة المرتزقة .. إنما هى عصا تنفعنى فى طرقات مملوءة بالحفر ، كما تنفعنى « البيريه » فى أجواء ملبدة بالغيوم ... وفى ذات صباح قريب وأنا أمشى على كورنيش النيل سمعت حديثا أو على الأصح حوارا بين اثنين ، خلته أول الأمر بعيدا عنى . وإذا بى أجده قريبا منى ، بل ملتصقا بجسمنى .. وجعلت أصغى .. عجباً ! .. إنه حوار عجيب بين « البيريه » التى على رأسى والعصا التى فى يدى . لم أتابع بالطبع الحوار من بدايته ، لذلك التقطت عبارة « البيريه » وهى تقول للعصا :

— نعم . لا بد أن أطلب أنا أيضا بمنبر ..

وردت العصا :

— أنا أحق منك بالمنبر ..

وارتفع صوت البيريه فى احتجاج :

— أحق منى ؟ ولماذا أحق ؟ .. أنا الأحق لأنى أنا الموضوع فوق

الرأس ... الرأس الذى يفكر .. أما أنت فمغروسة فى وحل الشوارع ...

— فعلا .. ولكنى أمشى فيه وأعرف طريقى ... وأتكلم ... نعم أنا الذى يتكلم .. وكلامى ملاً كتاباً .. ألا تعرفين كتاب « عصا الحكيم » ١٢. ولكن دلينى أنت على كتاب باسم « بيريه الحكيم » ؟ وعندئذ دخل فى هذا الحوار بين الاثنين صوت ثالث ... صوت أجش النبرة يقول :

— إذا كان على الكتب فأنا قد ظهر باسمى أكثر من كتاب ... ألم يسمع أحد منكما عن كتاب « حمار الحكيم » ١٢

فما تمالك الاثنان « البيريه » والعصا من الصياح فى وقت واحد :
— حمار !! ما شاء الله .. ما كان ينقصنا إلا هذا !! .. لعلك أنت أيضا أيها الحمار جئت تطالب بمنبر !!

فأجاب الحمار متحديا :

— ولم لا ؟. أليست لى أنا أيضا آراء .. ١٢. آراء منشورة فى الكتب !!
واتحدت العصا مع « البيريه » فى صوت واحد :

— إذا دخل الحمار معنا فى المنابر فإنه سيفسد علينا كل شيء .. يكفى أن يكون معنا حمار ! ..

فقال الحمار :

— ولماذا الخجل منى ١٢ .. أليست العبرة بالأفكار ١٢ ..

فقالت « البيريه » والعصا :

— نعم .. ولكن عندما تخرج الأفكار من أناس محترمين !

— وهل أنا غير محترم ١٩ وهل الاحترام وقف على من يجلسون فوق
الرؤوس ، ويلوحون بالعصى ... أنا الذى على ظهري كل الحمل ... من
الذى يعبر عن أفكارى ؟ .. العصا أو البيريه ١٩
وارتفع صوت البيريه والعصا :

— طبعا ..

وثار الحمار :

— بأى حق ١٩. بأى حق تتكلمون باسمى ، وتحدثون عنى
وتتليجرون بصوتى ...

— أتتحرش بنا ؟ .. مالك ومالنا تحشر نفسك فينا ١٩ ..

— أنا الذى حشرت نفسى فيكم ١٩ أو أنتم الذين تحشرون أنفسكم فى
شخصى المتواضع .. وساعة الركوب أجدم دائما فوق ظهري ... أما
ساعة الأكل ...

— كفاية ! ... كفاية ! ... نعطيك المنبر .. على شرط أن لا تنهى ...
— مفهوم ! ..

— وعلى شرط أيضا أن يكون صوتك نغمة ...

— فاهم ... نغمة سيكا أو نهاوند ... المهم منبرونا ...

— « غنبرك » ١٩ .. « ما هذه اللغة » ١٩ ..

— لغة فصيحى ... فعل جديد ؟ منبر بمنبر منبرة ..

— « منبرة » ١٩ ..

— أى نعم .. منبرة على وزن منبرة ..

— أو نظرت « البيريه » إلى « أميلتها » العصا :

— قلنا الحمار سيجلب لنا المتاعب !

— ١٣٧ —

وسمع الحمار وقال :

— أبدا والله !.. أنا حسن النية وقلبي طيب ..

وقالت العصا والبيرييه :

— ندخل في الجدد .. عندما تنال المنبر .. أو حسب لغتك الجديدة

الفصحى إذا أنت « تمنبرت » فماذا أنت صانع ؟

— أمهلوني حتى أفكر ..

— نمهلك ... لك أسبوع ..

١— وهو كذلك ... موعده إذن الأسبوع القادم ..

الصفحة

لم أرد التدخل في ذلك الحوار القائم بين « البيريه » التي على رأسى
والعصا التي في يدي والعمار المنتسب إلى شخصي ...

ولكن الاهتمام بحديثهم ازداد عندي . خاصة وقد وعد العمار بأن يأتي
هذا الأسبوع ليقول مخلصا هو صانع إذا « تمير » أي حصل على المنبر الذي
طالب به ... ومعنى هذا في عرف السياسة هو تقديم « البرنامج » ولكن
العمار جاء ليعرض بمسألة أخرى هي « التصنيف » قائلا للزميلتين :

— لقد وعدت بالتفكير فيما أنا صانع إذا تميرت ، ولكن فاجأني
سؤال طرحته على نفسي : من أنا ؟ وماذا أمثل ؟ ومن أي فئة أتكلم ؟ ..
فقلت البيريه وزميلتها العصا :

— مفهوم . تقصد التصنيف .. تريد أن تتصنف ..

— طبعا . أريد أن أعرف هل البرنامج بعد التصنيف أو التصنيف بعد
البرنامج ؟ ..

— وأنت ما رأيك ؟

— رأيي أن التصنيف أولا .. لأن البرنامج ينبع من نوع الصنف وميوله
ومصلحته .. لا بد إذن من « الصفحة » !

— عظيم .. إذن صنف نفسك ! ..

— تفضلوا أنتم أولا بتصنيف أنفسكم ..

- أنا « البيريه » الموضوعه على الرؤوس أمثل أهل الرأى ..
— وأنا « العصا » التى فى اليد أمثل أهل القيادات ..
— وأنا « الحمار » الذى يحمل على ظهره أمثل أهل العمل ..
— معقول ... إذن كل منا له منبر يمثل الثلث ..
— لا .. انتظروا من فضلکم .. أنا الذى أمثل العمل لى وحدى
النصف وليس الثلث .. أنا صاحب الخمسين فى المائة للفلاحين
والعمال ..
— فهل أنت فلاح أو عامل ؟ .. وضع لنا أيها الحمار ؟ ..
— أنا عندما أشتغل فى الريف فأنا فلاح وعندما أشتغل فى المدينة فأنا
عامل ..
— ما هذه الحسبة ؟ أنت واحد فرد تصبح اثنين ؟! هذا شيء عجيب
حقا .. أهو حساب جديد أيضا ؟! ..
— نعم .. حساب العدل الاجتماعى ..
فنظرت البيريه والعصا كل منهما إلى زميلتها قائلتين :
— هذا الذى نقول عنه حمار !!!
— نعم .. أنا حمار ولا فخر ! .. ولكن لاحظوا أن كثيرين من أهل
الرأى حمير ..
فقالت « البيريه » فى احتجاج :
— من فضلك حسن ألفاظك ! ..
— ألفاظى حسنة ودقيقة . وأنا أقصد بالضبط أن العمل الذى أمثله
يدخل فى بابہ أيضا العمل الذهنى إلى جانب العمل اليدوى .. وإذا كان

العامل اليدوى يكدح فإن العامل الذهنى يعتبر كذلك أحيانا من الكادحين ..

فاطمأت « البيريه » ورضيت وقالت : —

— هذا كلام طيب .. إن الحركة الذهنية لا تقل مشقة عن الحركة اليدوية .. ولذلك أرحب أن أعتبر نفسى ..
— من فئة الحمير ..

وهنا صاحت العصا قائلة للحمار :

— ما شاء الله ! تريد أن تجر زميلتى إلى صفك ؟! ..
وتدخلت « البيريه » معقبة :

— فى الواقع أن ما يقوله زميلنا ..

— زميلنا ؟! ..

— نعم يا عزيزتى العصا ولتم لا ١٤٠. إلى أشعر أى أكدح مثله وأنى أحيانا مهضومة الحق مثله ..

— ولكنك يا عزيزتى « البيريه » لا تمنعين فى اعتبار نفسك أحيانا من فئة القيادات ! ..

— لأعاونك برأى فى اجتياز الطرق المعوجة وعلى حسن السير بين حفر الشوارع ..

— وكذلك لتعتمدى على قوتى فى بلوغ هدفك ...

— هدفى ؟! .. وما هو هدفى ؟! ..

— أنت أدرى به .. ولكن أعلم أنك من قديم تعتقدين أن رأى المقترن بالقوة خير من رأى المجرد .. ولهذا كانت زمالتنا الطويلة ...

— نعمم كي أدرأ الخطر عنك وعننى .. خوفا من أن تنزلىنى إذا
ترىكتك تسيرين وحدك فى الشوارع المملوءة بالحفر ، على غير هدى من
توجيهى ..

— وما الذى تغير اليوم كي تتركينى وتنضمى إلى هذا الحمار ١٩
— فصاح الحمار قائلا :

— مهلا مهلا .. هذا الحمار لم يعد اليوم يطبق أن تنخسه أيتها
العصا !.. ألا تعرفين المثل الشائع : « إن كثرة النخس تعلم الحمار
الرفض » ..

— أنا اليوم لا أنخسك ولكنى أخدمك ...

فقلت : « البيريه » :

« ومن علمك أيتها الزميلة ووجهك إلى خدمته ؟ .. »

— على كل حال نحن يا عزيزتى اليوم نتعاون كلنا لنخدمه ..

— إذن لا تلومينى على الانضمام إليه والوقوف فى صفه ..

— أنا لا ألومك على هذا ، ولكنى ألومك على تركى والانتماء إليه ..

ألا تعرفين أنى أنا أيضا يهمنى الحمار .. إنى من قديم ملتصقة به .. إن
العصا والحمار لا يفترقان .. صحيح فى الماضى كان بيننا تناقض ، أما
اليوم فبيننا تعانق .

— هذا بفضل توجيهاتى ..

— فليكن ... المهم هو أن أهدافنا وبرامجنا يجب أن تكون واحدة وهى

خدمته ومصلحته والارتفاع بمستواه

— وهل لنا هدف آخر غير خدمة عزيزنا الحمار .. إنه منا ونحن

منه .. وسيكون أنشودتنا الجميلة في كل البراج ..

— فعلا .. إن عزيزنا الحمار ..

فابتسم الحمار قائلا :

— عزيزنا !! سبحان الله !!!

فقلت « البيريه » والعصا في نفس واحد :

— أتشك في ذلك ؟! ثقب أنك منا ونحن منك ..

— من الحمير !!

— ولم لا أيها العزيز ؟!

— الله أكبر ... الكل اليوم يتسابق إلى « الحمرة » !

— ونعم بالحمرة !.. إنها شعار العمل الصامت والصدق

والحقيقة ..

— الحقيقة ! أين هي الحقيقة ؟!

— عجبنا زميلنا الحمار !.. الجميع اليوم يتكلم عن الحقيقة ويبحث

عن الحقيقة .. منذ أن ظهر كتاب يدعو إلى فتح الملفات ، للبحث عن

الحقيقة !.. ألم تسمع عن هذا الكتاب !..

— أي كتاب ؟!

— كتاب اسمه ؟.. اسمه « عودة .. » عودة ماذا يا زميلتي

العصا ؟!

— أظن أن اسمه .. المهم يا زميلتي البيريه إنه يدعو إلى فتح الملفات ..

ومنذ ذلك اليوم والملفات كما نرى تفتح كل يوم في كتب لا أول لها ولا

آخر ..

— ١٤٣ —

— والعجيب يا زميلتي العصا أنه بفتح الملفات قامت حرب يمكن تسميتها « حرب المستندات » مثل « حرب الصواريخ » فكما توجد صواريخ ، وصواريخ مضادة ، كذلك ظهرت مستندات ، ومستندات مضادة !..

فهز الحمار رأسه وقال :

— إذن هذا يعنى أنه توجد حقيقة ، وحقيقة مضادة !. أما كلمة الكذب أو كلمة « التزييف » فلا لزوم لهما . جرى حذفهما من

البرجة

دخل الحوار بين العصا ، والبيرييه ، والحمار ، في مسألة المناير ، إلى الدرجة التى تقتضى أن يعلن كل طرف عن برنامجہ ...

وافتحت البيرييه الحديث بقولها :

— الآن وقد تمبرنا وتصنفنا بقى علينا أن نتبرمج!.

فالتفت العصا إلى الحمار قائلة :

— برمج نفسك يا عزيزنا المحترم ...!

فقال الحمار بتواضع :

— برمجوا أنفسكم أولا .. إن لكم الأولوية باعتباركم أقدم منى في

الاحترام ... فأنا لم أظفر بمعزتك واحترامكم إلا منذ قليل ...

ف قالت البيرييه :

— برنامجى واضح ... فأنا باعتبارى أمثل الرأس ، أى الرأى ،

فسأطالب فى الحال بمحو أميتك ...!

فقال الحمار :

— أشكرك ...

وقالت العصا :

— وأنا باعتبارى أمثل القيادات فسأعمل فى الحال على الارتفاع

بمستوى زريبتك ، أقصد قريبتك ... سأدخل فيها التلفزيون الملون ...

— ١٤٥ —

— جميل ا.. وماذا عن الأكل ١٢

— لطيفين يا حمارنا العزيز .. سنزيد لك كمية العلف والعليق ...

— بكم ستكون كيله الفول والذرة ...؟

— هذا موضوع اهتمامنا الأساسى ...

— شكرا .

وعندئذ قالت « البيريه » ومعها العصا :

— والآن قل لنا ما هو برنامجك أنت ؟

فقال الحمار :

— وهل تركتم لى شيئا أبرجه ١٢... إن كل برنامجكم هى عنى وعن

مصالحى باعتبارى محور اهتمامكم الأساسى ا. فماذا أقول ٢... إن برنامجى هو برنامجكم ٣.

— طبيعى ... وهل لنا شغل وشاغل إلا أنت ٢...

— معنى هذا إذن ألى أنا الذى شغلتكم ... وبدونى لن يكون عندكم

شغل ا

— طبعا .

فسرح الحمار بخياله قليلا ، وقال :

— افرضوا فرضا ... مجرد فرض ألى غير موجود ..

— ماذا تقصد ١٢

— أقصد ألى غير موجود بمطالبى واحتياجائى ... فلا فقر ولا بؤس

ولا متاعب ولا مشاكل ... ماذا يحدث لكم ١٢

— كارثة ... ا.

(تحديثات سنة ٢٠٠٠)

— مصيبة ...!

فابتسم الحمار وقال :

— كارثة ومصيبة لكم أن لا تكون عندي متاعب ومشاكل

ومطالب ١٩.. طبعاً ١.. لأنه لن يكون عندكم شغل ١.. ستصبحون
عاطلين ١.... لن تكون هناك برامج ولا مذاهب ولا مبادئ ... فأهل
القيادات لن يجدوا من يقودونه ... وأهل السراى لن يجدوا من
يواجهونه .. ماذا ستفعلون فى هذه الحالة ١٩...

ففكرت « البيريه » لحظة ، ولكن العصا أسرعت تسعفها :

— إذا كان الحمار يظن أنه بهذا يلغى وجودنا فهو واهم ... إن الحل

بسيط ... أنا العصا سأعود إلى ضربه ...

— وأنا « البيريه » سأعود إلى حمايته ...

— وأنا « الحمار » سأعود موضوعكم من جديد ...

فقالت « العصا » :

— طبعاً ... كى تمشى الأمور ...

وتهد الحمار ولم ينهق وقال كالمخاطب نفسه :

— نعم.. نعم.. وهكذا تبعث مرة أخرى البرامج والمذاهب والمبادئ

التي تدور كلها حولى وتقوم على ظهري، مطالبة بالحرية والعدالة وحقى

فى الحياة ومستواى الرفيع فى المجتمع ... إلى آخره ... إلى آخره ...

وبدا الضجر على البيريه والعصا وقالتا معا :

— دعك من هذه الفروض الوهمية ... تكلم فى الواقع ١...

— وما هو الواقع ١٩.... أليس كلامى هو الواقع ١٩... عندما ألاحظ

وأقول إن براجمنا كلها واحدة ، وألفاظنا واحدة ، وشعاراتنا واحدة ،
وهتافاتنا واحدة، ولا بأس عندكم الآن أن أقول إن « نهيقتنا » .. أيضا له
نغمة واحدة ..

فتململت العصا وقالت بامتعاض :

— نهيقتنا ١٩

فمالت عليها البيريه هامسة :

— اسكتي ولا تستثيريه ...

فقالت العصا مستسلمة :

— صدقت ... نعم نهيقتنا ... ولكن ما وجه الغرابة يا عزيزنا الحمار

في أن تكون براجمنا واحدة ...؟

فقال الحمار :

— لأن مصالحنا ليست واحدة !... ولا تؤاخذوني على الصراحة ...

لماذا لا يفصح كل منكم عن مصلحته الخاصة ...؟

— ماذا تقصد بالضبط ...؟

— أقصد لماذا لا يتقدم أحدكم مثلاً ببرناج عن مصلحته

الرأسمالية ...؟

— يا خبر أسود !... مصلحتنا الرأسمالية ؟.. أهذا كلام يوضع في

البراج ...؟

— فعلا ... لا يوضع ولكنه يمارس ...

— قلنا لك يا زميلنا العزيز إننا أصبحنا مثلك من الحمير ...

— نعم ، ولكن نوع العلف والعليق مختلف !...

الحزبنة .

بعد أن انتهى الحوار بين العصا والبيرييه والحمار في مسألة المنابر والتصنيف والبرامج كان لابد أن يؤدي كل ذلك إلى القضية الكبرى : قضية الأحزاب ...

وهنا قالت العصا :

— دخلنا في الجدل .. بعد المنبرة والصنفنة والبرمجة لم يبق أمامنا إلا

الحزبنة ! ..

وقالت البيرييه :

— حقا .. منبر وصنف وبرنامج ماذا يمكن أن يخرج من هذا ؟ إنه فعلا

مشروع حزب ...

— نعم يا عزيزتي نحن نسير في طريق الحزبنة والأحزاب .. !

— ولم لا ؟ ..

ومرت لحظة صمت .. ولاحظت البيرييه والعصا أن ثالثهما الحمار

مطرق بأذنيه الطويلتين لا يتكلم .. فسألته البيرييه :

— لماذا أنت ساكت ؟ ! قل لنا رأيك في الأحزاب ؟ ..

فرفع الحمار رأسه قائلا :

— لقد سبق لي أن أبدت رأيي في الأحزاب منشورا في أكثر من كتاب

منذ ثلاثين عاما ... ولذلك أرجوكم أن تعفوني من الكلام في هذا

الموضوع ...

فقلت البيرييه والعصا :

— نحن نعرف رأيك ونقدك لنظام الأحزاب كما كان يطبق في ذلك العهد ... وما أدى إليه من صراع مستمر على كراسى الحكم ... وتعطيل العمل في المشروعات النافعة ، والاهتمام الجنوني بلعبة الكراسى الحزبية ...

— فعلا ... كانت بلادنا كلها لا شغل لها إلا هذه اللعبة ، لعبة الكراسى الحزبية ، وما تؤدي إليه من عدم استقرار الحكم ... وعقبت البيرييه قائلة :

— هذا صحيح ، ولم يكن هذا حالنا وحدنا ... ففي دولة مثل فرنسا عمت الشكوى في ذلك الوقت من ضراوة الصراع الحزبي ، وارتفعت أصوات تطالب بإصلاح النظام البرلماني ، وكذلك الحال في إيطاليا حتى الساعة حيث لا توجد حكومة تستطيع أن تستقر في مقاعدها ... ولكن ما هو البديل ؟ لقد تحقق رأيك في إيجاد حكم بغير أحزاب .. فماذا كانت النتيجة ؟ ...

فخفض الحمار رأسه وقال بصوت الأسف :

— صدقتم ... كان البديل هو حكم الفرد ... الذي نتجت عنه الدكتاتورية البوليسية ... وما نجم عن ذلك من كوارث وخراب .. وما نراه اليوم من فزع وهلع من الحكم الفردي ، والهرب من شبحه الخيف ، بالصياح : إلى الأحزاب ، الأحزاب ...

— إذن أنت قد غيرت رأيك القديم ...

— نعم ولا ... نعم لا يمكن العودة إلى نظام الحكم الفردى ...
ولا ... لا يمكن أيضا الرجوع إلى نظام الصراع على الحكم ولعبة الكراسى
الحزبية التى توقع فى الفوضى السياسية وما تعانى منها اليوم بعض دول
الديموقراطية الغربية ...

— أنت تريد نظاما جديدا خاليا من هذين العيبين : الدكتاتورية ولعبة
الكراسى الحزبية ١٩ ..

— بالضبط .. نظاما جديدا فيه محاسن حكم الفرد دون أضراره
ومزايا حكم الأحزاب دون مساوئه ...
فقلت البيره مازحة :

— أنت تذكرنا بحكاية فى الأدب العربى القديم عن رجل ذهب إلى
سوق الدواب ليشتري حمارا ، ولا مؤاخذه ، فقال للبائع : « أريد
حمرا ليس بالصغير المحتقر ولا بالكبير المشتهر ، إذا خلا له الطريق تدفق ،
وإذا كثرت الزحام ترفق ، إن أقللت علفه صبر ، وإذا أكثرته شكر ، وإذا
ركبته هام ، وإن ركبته غري نام » . فحملق فيه البائع مشدوها وقال له :
— « يا عبد الله اصبر ، فإن مسخ الله قاضى المدينة حمرا أصبت
حاجتك إن شاء الله ! .. »

وعقبت العصا بدورها :

— زميلنا العزيز يريد لحما بلا عظم ، وخبزا بلا خلط ، ووردا بلا
شوك ، ونظاما سياسيا بلا عيب ...
وهز الحمار رأسه قائلا :
— تقصدون أني أريد المستحيل ١٩ .

— تريد أن تبرهن لنا أن هذا ممكن التحقيق ...

— اسمعوا إذن : نبدأ أولاً بالتفكير في نزع الأشواك وإبعاد العيوب ، وأهم عيب في الديمقراطية الحزبية هو الصراع للوصول إلى كرسي الحكم الذى يدمر كل شيء في طريقه ويصبح هو الهدف الأكبر ، كما أن أهم عيب في حكم الفرد هو القضاء على رقابة الشعب وإرادته ...

— مفهوم كل هذا .. ولكن كيف يمكن تصحيح هذين العيبين ١٢ .
— المسألة بسيطة .. علينا قبل كل شيء أن ندرس ونفحص السبب الأساسى الذى جعل الاتحاد الاشتراكى عندنا وكذلك مجلس الشعب على هذه الحالة التى أشعرتنا بعدم الفاعلية . إن السبب ليس فى عدم وجود المعارضة فالمعارضة يمكن إيجادها فى صورة منابر أو أحزاب مع صحافة حرة ، ويبقى بعد ذلك الحال كما كان — وتبقى عدم الفاعلية كما كانت ، لأن المعارضة تخرج من فم ليس له أسنان ...

— تقصد معارضة كلامية صياحية لا نتيجة لها ؟ ..

— فعلا ... لا نتيجة لها . لأن المعارضة بالكلام والصياح وملء صفحات الجرائد الحرة بالنقد المرير ، كل ذلك مع الاعتياد يصبح ضعيف الفاعلية مثل مبيد الحشرات ، عندما تتعود عليه الحشرة وتتكيف معه ، مهما تمطرها بالمبيد تستمر على حالها غير مبالية .. كذلك كل مسئول يقول « ما دامت المسألة كلاما فى كلام ، اتركوهم يتكلموا على كيفهم ! .. »

— وماذا ترى إذن ؟ ..

— أرى أن يكون مع الكلام فعل ، ومع اللسان أسنان . وأسنان

المعارضة هي القدرة على إسقاط المسئول ، لقد كنت في الريف أرى ترحيب الأهالي بالمسؤولين من أصحاب السلطة حاسبين حساب نفوذهم ، قائلين عنهم وعن سلطتهم : « الى ما يقدرش يحبسنا مالوش عندنا اعتبار ..! » لذلك لا فائدة من المعارضة في المجالس النيابية إذا لم يكن لها سلطة إسقاط الوزير أو الوزارة ، وإلا استمر المسئولون غير مبالين بأي معارضة قائلين : « الى ما يقدرش يسقطنا مالوش عندنا اعتبار ..! » — عظيم .. ولكن كيف يتم ذلك ؟

— عندى اقتراح : هو منح المجلس النيابى ، سواء كان هو الاتحاد الاشتراكى أم كان هو مجلس الشعب حق إسقاط الوزير بعد سحب الثقة منه بالأغلبية المطلقة ، وكذلك حق إسقاط الوزارة كلها بعد سحب الثقة منها بأغلبية الثلثين ... وبذلك تصبح المعارضة فعالة والرقابة على الهيئة التنفيذية وليست مجرد كلام ...

— معقول ... ولكن هذا يستدعى تنظيم المجلس النيابى تنظيما حزبيا أو منبريا ..

— فليكن .. ولتنشأ الأحزاب إذا شاءت على شرط أن لا يكون لها حق الوصول إلى الحكم . أى أنها تستطيع أن تسقط الوزارة ولا تملك أن تؤلف هي الوزارة . وإلا أصبح إسقاطها للحكومة مدعما إلى الطمع فى الحصول على الحكم .. وبذلك نعود إلى لعبة الكراسى الحزبية ...

— ومن الذى يختار الحكومات والوزراء ؟

— رئيس الدولة المنتخب من الشعب بالاستفتاء العام . على شرط أن يتقدم معه مرشح آخر أو مرشحون ...

وفكرت « البيرييه » قليلا ثم قالت :

— اقتراح طيب ... خلاصته أنك تريد ديمقراطية منزهة عن الطمع في كراسي الحكم ، ولها الرقابة الفعلية على الحكومة بما لها من حق إسقاطها . أما تعيين الحكومات فهو من حق رئيس الدولة وحده . ولا يكون هذا ديكتاتورية لأن قراراته تخضع للطعن والإبطال بأحكام مجلس الدولة والقضاء العالى الدستورى ، ولدينا المثل في قرارات أصدرها زعيم فرنسا المعبود « دييجول » وأبطلها بمجلس الدولة وقال دييجول كلمته المشهورة : إني أنحنى ! .. وأنحنى فعلا أمام القضاء الحر .. يعنى صحافة حرة وقضاء حرا ومعارضة فعالة ، هذا الثالث وحده يساوى انعدام الديكتاتورية ...

— إذن أنا على حق ...

— طبعا كل هذا للمستقبل بعد تغير الظروف ...

— قولوا لهم إذن أن اقتراحى معقول وقابل للدراسة والفحص للأخذ مأخذ الجد ، بصرف النظر عن أنه صادر من رأس حمار ! ..

غلق الملفات

كان الجو مشمساً والمشى فى الطرقات ممتعا وسارت « العصا »
ومعها « البيريه » ، و « الحمار » فى صمت ، وكان جميعهم يريد
الاستمتاع بالمشى بعيدا عن ضجيج الآراء المتلاحمة هذه الأيام .. وأخيرا
رفع الحمار رأسه مفاجئا بقوله :

— ما رأيكم لو دعونا إلى غلق الملفات ؟.

فصاحت « البيريه » :

— ما هذا الذى تقول يا عزيزنا الحمار ١٢. ندعو إلى غلق الملفات
ونحن الذين دعونا إلى فتحها وتحملنا فى سبيل ذلك اللعنات ١٢
فقال الحمار :

— عندما دعونا إلى فتح الملفات ، وكان ذلك فى أواخر عام ١٩٧٢
كان المقصود هو فحص إنجازات ثورة ١٩٥٢ بمناسبة مرور عشرين سنة
على قيامها . وقلنا ذلك فى كتابنا الذى لعنوه .. ألا تذكرون ؟ ..
— نعم . ونذكر ما قلناه ونصه : « مهما يكن من أمر فإن هذه المرحلة
من مراحل مصر التى استغرقت عشرين عاما سوف تكون موضوع
دراسة مستفيضة ، وأرجو لدارسيها بفتريتها أن يكون رائدهم العدل
والموضوعية وأن لا تطغى على تفكيرهم الهادئ الرزين وحكمهم الرصين
أى حزاة أو مرارة أو مجاملة أو مبالغة ، وأن نذكر لها ولقاداتها المحاسن

والمساوئ على السواء .

— والنتيجة ؟ ماذا كانت النتيجة ؟

— لا شيء ... فتحت كما رأيتم ملفات ضد ملفات .. وأصبحنا في شبه ملعب كرة للنوادي المختلفة ، تتزاحم فيه الناس للفرجة ، والاستمتاع باللعبة وظهرت المقالات والكتب بالعناوين المثيرة ، ووضعت لها الأسعار المرتفعة التي لم يجزؤ أهل العلم أو الأدب أو الفن أن يضعوها على بعض أعمالهم .

— إنها حقا ظاهرة جديدة بالنظر : هذا الرواج للكتب والمسارح التي تهتف بالنقد الفاضح .. ومهما ترتفع أثمان النسخ والتذاكر فالتزاحم عليها شديد .. لعل السبب هو طول الحرمان من حرية الصراخ ..

— هذا صحيح . ولكن المهم مصلحة البلد ؟ هل كل ما نريد من الحرية هو هذه الفرحة العلنية في « كبريات » السياسات والمجادلات والمهاترات ؟ .. وبعد ذلك نقول ها هي ذى الملفات قد فتحت ؟ ..

— لم يكن الغرض من فتح الملفات هو فتح ملف أشخاص ، ولكن فتح ملف مشروعات .. أى جرد الناجح والفاشل ودراسة المكاسب والخسائر ، حتى يمكن تنمية الأرباح وتجنب الخسائر ، ونحن شارعون في عملية البناء ..

— قليل من فهم الأمر على هذا الوضع . لأن الكثير قد فهم أن مجرد ذكر كلمة فشل أو خسارة أو خراب هو تهجم يجب أن يقابله نفى قاطع . فلا توجد خسائر ، وكل ما حدث كان صحيحا وكسبا عميقا ، وكل خطأ يخلق له تبرير ..

— حقا .. وهكذا انقلب الأمر إلى مسرحيات وكتابات مرتفعة الثمن ، مرتفعة الصوت لمجرد الكسب المادى ولفت النظر .
— هناك مع ذلك وطنيون شرفاء ، لهم من تاريخهم الوطنى ما يشهد بأنهم أرادوا حقا ويريدون الطهارة والإصلاح .

— نعم . ولكن هل مكنوا من تحقيق هدفهم الشريف ؟
— ليس هذا سهلا فى وقت اختلط فيه الحابل بالنابل .
— إذن ، ربما كان الأنفع الآن للبلد هو غلق هذا الباب مؤقتا .. باب فتح الملفات ، لأنها لم تسفر عن الوصول إلى الحقيقة ، بل إلى مزيد من الشوشرة .

— إذن ما من أحد يريد الوصول إلى حقيقة .. وما دام الأمر كذلك فلا جدوى من فتح الملفات ، فلنغلقها ولنلتفت الآن إلى العمل الصامت والبناء الهادئ لبلادنا المحتاجة للترميم ، وكفانا فرجة عابثة على لعبة النوادى والأطراف المتصايحة ..

فاستطرد الحمار قائلا :

— وكل طرف يصرخ متهما الطرف الآخر بالهجوم الشرس عليه ، وينسى المثل الشعبى الريفى الذى يقول : « الى يلعب الدح ما يقولش ... » !!!

— واستدركت العصا :

— ولكن هل معنى الصمت الاستغناء عن النقد ؟

فأجابت البيريه :

— لا بالطبع . لابد من النقد . ولكنه النقد البناء . وهذا النقد يعتبر

— ١٥٧ —

جزءاً من عملية البناء نفسها . وهو مرادف لكلمة دراسة وكلمة فحص . لأنه يتجه إلى صميم الأعمال ، وليس إلى خصوصيات الأشخاص ، وبنية التقويم وليس بشهوة التجريح ...
وعقبت العصا :

— هذا الكلام طيب ، لو أن الكل يهتم حقاً ببناء بلده ، ولكن هناك فريقاً يهتم قبل كل شيء ببناء ذاته ..
وأطرق الحمار ملياً وقال :
— والله أنا غلبت في البلد وغلبت حمارى !..

الإنسان حيوان كلامجي

في مشية الصباح المعتادة عم الصمت بين الثلاثة المتلازمين « الحمار » و « العصا » و « البيريه » وهم بالطبع غير « الفرسان الثلاثة » المتلازمين في القصص المشهورة ، فهم لا يحملون سيوفا ، ولكنهم يحملون ألسنة ، ليست مع ذلك ألسنة حدادا ... شلائهم لا يحبون الطعن في الأشخاص ، فالطعن والطعان عندهم في الآراء ... واستمر الصمت بينهم في ذلك الصباح لحظات قطعها الحمار قائلا بنبرة ضيق :

— سئمتنا ومللنا وزهقت روحنا ..!

فقال رفيقاه :

— صدقت ..! وأخيرة الكلام ؟ ..!

— وهل للكلام آخر ؟! ما دامت هناك مجالس فكل حاضر فيها لابد أن يلعب لسانه بكلام ... أى كلام غير مرتبط بأى كلام آخر ... كأن مجرد الكلام مقصود لذاته ...

— حقا . هذا ملاحظ في أكثر الأحيان : أن يطلب أحدهم الكلمة لجرد أنه يريد الكلام . لماذا ؟ لا لشيء غير ذلك . ويظهر أن هذا طبع بشري . لأن الحيوان له أيضا ، كما يقول العلماء ، لغة يخاطب بها فصيلته . وكذلك الحشرات لها لغاتها . فللنمل لغة وللنحل لغة ، حتى الطير على الشجر والسمك في البحر . ولكن الكلام عند هذه الكائنات

جميعا بحساب . أى لتأدية وظيفة معينة ، محدودة بالفرض المباشر . ولا يتصور أن يستعمل الحيوان أو الحشرات أو الطير أو السمك لغاتها لرواية نكتة من النكات ، أو لإلقاء خطبة من الخطب المنبرية أو للمواقف المظهرية ... ما عدا الإنسان فاللغة عنده ليست بالضرورة أداة توصيل ، بل أداة استماع . والكلام عنده أحيانا يحلو له مضغه مضغا للتسلية مثل اللبان ...

— لعل الكثير من المجالس واللجان والنوادي والمصاطب ونحو ذلك هى اختراعات بشرية لنوع من المصانع التى تنتج هذا اللبان المسلى !..
— وهل اللبان وحده هو الذى يمضغ ولا يبلع ولا يفيد إلا للتسلية ؟
عندكم السجاير التى ينفق فيها الإنسان الكثير من ميزانيته ليظل يقول :
« هف !.. هف ! » ويسعل وينفث الدخان من الورق المحترق بنقوده !..

— وماذا نسمى ذلك ؟
فرفع الحمار رأسه قائلا :
— لو كان الحمار هو الذى يدخن ويمضغ اللبان ويتسلى بالكلام لقلتم عنه : « طبعا !.. حمار !.. »
فقالت البيريه :

— لا يا صديقنا العزيز ... إن الحمار لا يعرف هذه العيوب التى عند الإنسان ولعل ميزة الإنسان هى قدرته على الاعتراف بعيوبه ...
وعقبت العصا :

— نعم ... هو قادر على الاعتراف بعيوبه ولكنه عاجز عن

تغيرها ... إنك لا تسمع من المدمن إلا قوله دائما : « الله يلعن الدخان وسيرته ، خارب للجيوب وللصحة ! » فإذا قلت له : « ولماذا لا تبطله ؟ » أجاب : « فعلت أكثر من مائة مرة ! » ...
وتهد الحمار وقال :

— آه ... منكم !... الحيوان مظلوم معكم !... لماذا يتميز الإنسان ويختص بصنع ما يضره ، وهو عالم بضرره ١٩. ما من حيوان يفعل ذلك .. حاولوا أن تقدموا لمفصيلتنا من الحمير لحوما يجفانها ترفض ، وللسباع برسما فإنها تأبى .. وللإنسان أى شئ فإنه يأكله وتتعب معدته ويمرض ، ثم يعاود ولا يتعظ ...
وقالت البيريه :

— يظهر أن الحيوان أعطى الحكمة ، والإنسان أعطى العقل والحكمة معا لتغيير وجه الدنيا ...
وقالت العصا :

— حقا ... إن الإنسان لو أعطى الحكمة لكان كل شئ عنده بمقدار ، ولكنه « مفلوت العيار » !..
وقال الحمار :

— إنكم تتندرون دائما بنهيق الحمار !... تفهل نحن تتهق طول الوقت من غير لزوم ١٩!

فقالت البيريه والعصا معا :
— لو فعلتم ذلك طول الوقت لكانت نعصية ! ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ ..

— ١٦١ —

- هذا عندكم . أما عندنا فإنه المطرب المشجى ! ..
- المطرب المشجى ؟ .. صوتكم ! .
- نعم . ولو كانت لكم آذان مثل آذاننا لعرفتم ! .
- ليست لنا آذانكم الطويلة : ... ولعلها طويلة لتلتقط النقيق المطرب المستطيل ! ..
- وكلامكم الطويل الساعات الطوال بغير لزوم ، ماذا تقولون فيه ؟
- وأنت ماذا تقول ؟
- لقد قالوا إن الإنسان مدنى بالطبع ، وأنا أقول إن الإنسان كلامنجى ، بالطبع ! ..

إجازة للعمال

كان اليوم يوم الجمعة وأكثر المحررين في إجازة وتأخر تصحيح المقال الأسبوعي المطلوب من الفرسان الثلاثة : « البيرييه » و « العصا » و « الحمار » فرأوا الذهاب رأسا إلى المطبعة ... ولم يكن هذا مألوفا، كان المقال يأتي إليهم لمراجعته وهم في حجرتهم على مكتبهم .. ولذلك دهش عمال المطبعة لمجيئهم ، وأقبلوا عليهم مرحبين ، وقدموا إليهم كوبا من الشاي فترددت « البيرييه » قائلة :

— ما أشربش الشاي .. !

فقالت « العصا » متهمكة :

— أظنك ستقولين : « أشرب كازوزة أنا » !

فتدخل « الحمار » قائلا :

— لا أنت ولا هي !.. أنا المقصود بالعزومة ... وكوب الشاي لي

أنا .. فأنا أمثل العمل .. وأنا الآن بين عمال .

وسرت في « البيرييه » و « العصا » روح التنافس فصاحتا معا :

— كلنا المقصود . فثلاثتنا عندهم شيء واحد .

وأسرع الثلاثة في حركة واحدة إلى الكوب وجعلوا يرتشفون معا

وهم يقولون :

— الله !.. ألد كوب شاي ذقناه !

وكان قولهم خالصا مخلصا . فاللذة المادية تتضاعف وتتكامل باللذة
الروحية . وكانت روح العمال حولهم من الصفاء والمحبة بما لم يصادفوا
مثله إلا في النادر ..

وبدأت « البيرية » بقولها لبعض العمال :
— اليوم يوم جمعة ، وكثير من المحررين في إجازة وأنتم أليست لكم
إجازة أسبوعية ؟

فأجابوا بالنفي .. وقالت « العصا » موضحة :
— طبعا لا يمكن أن تكون لهم إجازة أسبوعية . لأن الصحيفة نفسها
ليست لها إجازة ..

وقالت « البيرية » :
— لا إجازة أسبوعية ولا إجازة عيد !
فقال « الحمار » :
— وما الحكمة في ذلك ؟
فأجابت « العصا » :
— الحكمة هي عدم انقطاع الصحيفة عن الناس .
فقال الحمار :
— وما الذي يجرى في الدنيا إذا انقطعت الصحيفة يوما واحدا عن
الناس ؟

فقالت « البيرية » :
— ألا تدري ما الذي سيجرى ؟
— أنا حمار .. فهموني !

— وما الداعى إلى إفهامك ما دمت لا تفهم !؟
— سبحان الله ! ومن أحوج إلى الإفهام ... أليس هو الذى لا يفهم !!

— إذن افهم أيها الحمار، إخواننا من الصحفيين يعتقدون أن الدنيا سوف تنقلب.. وأن يوم الحشر سوف يقترب ، إذا اختفت صحيفتهم عن الناس يوما واحدا !!

— وهل هذا رأى الناس ؟

— رأى الصحفيين .

— تقصد الصحفيين فى بلاد العالم أو فى بلادنا ؟

— وما الفرق ؟

— الفرق واضح .. وهو أنه فى بلاد مثل فرنسا مثلا لا تظهر الصحف فى يوم الأحد .. مع أنها بلاد ليست فيها نسبة أمية ما يقرب من ثمانين فى المائة !

— وكيف يعرفون أخبار الدنيا فى ذلك اليوم ؟

— عندهم الإذاعة ... كما هى عندنا ! وكذلك التلفزيون !

— وهل هذا يكفى ؟

— الظاهر أنه عندهم يكفى .. أما عندنا حيث تعدادنا يبلغ نحو الأربعين مليوناً كلهم من المثقفين والمفكرين والعلماء والأدباء فلا يمكن أن يصبروا يوما واحدا دون ظهور الصحيفة واستهلاك الورق مثل استهلاك الخبز !!

— ما شاء الله !

— طبعا نحن شيء والبلاد الأخرى شيء آخر .. نحن في مستوى وهم
في مستوى آخر .. ﴿ وهل يستوى الذين يعلمون والذين لا
يعلمون ﴾ ؟

وهنا قال الحمار :

— ومن قال إننا نريد أن نهبط إلى مستوى البلاد الأوروبية ١٩ وأن نغلق
صحفنا كلها يوم الأحد أو يوم الجمعة ١٩ كل ما نقترحه هو أن يكون فقط
لكل صحيفة يوم إجازة في الأسبوع . إن لدينا ثلاث صحف يوميا . على
كل واحدة منها أن تختار لها يوم إجازة ، بينما تظهر الزميلتان الباقيتان ..
وبهذا تعطى فرصة الرواج وزيادة التوزيع في يوم واحد في الأسبوع لكل
صحيفة يعرضها عما خسرته في يوم عطلتها . وبهذا وهو الأهم إعطاء كل
عامل من عمال هذه الصحف يوم إجازة كاملة في الأسبوع .

فقلت « البيريه » :

— الرأى في هذا رأى مجلس الصحافة ونقابة الصحفيين .

وقالت « العصا » :

— وهل رأى نقابة الصحفيين عندنا مثل رأى نقابة الصحفيين في

فرنسا ١٩

فقال « الحمار » :

— حذار على كل حال من القول أن الاقتراح صدر من الحمار !

تاكسى

كان الصباح منبذرا بالدفء . وعند المشى والشمس ساطعة يقترب
الدفء من الحر ويصبح المشى مرهقا . وهذا ما شعر به الفرسان الثلاثة :
« البيريه » و « العصا » و « الحمار » فى منتصف الطريق . فقالت
البيريه :

— إذا أردنا مواصلة المشوار فلا بد من « تاكسى » ..

فصاحت العصا ومعها الحمار :

— تاكسى ١٩ أهذا ممكن ١٩. جرى فى عقلك حاجة ١٩

— ولم لا ١٩ ها هى ذى التاكسيات تملأ الشوارع ..

— فلنحاول إذن .. لعل وعسى ! ..

وكانت المحاولة اليائسة من أجل إيقاف تاكسى من تلك التاكسيات

التي تسابق الريح ولا تقف لمخلوق ..

وقالت العصا بعد أن تعبت من الإشارة إلى هذه التاكسيات لا

بالوقوف بل لمجرد إلقاء نظرة :

— حتى النظرة إلينا لا نظفر بها من السيارة .. نظرة يا ست ! ..

وقالت البيريه فى صيحة :

— انظروا .. انظروا .. هذا التاكسى الخالى بلا ركاب .. إنه مع ذلك

يجرى بأقصى سرعة كأنه فى ميدان سباق ! ..

وقالت العصا :

— العجيب أن أكثر التاكسيات المشغولة لا تحمل غير راكب واحد
يجلس إلى جوار السائق ، وبقية المقاعد خالية كأنها تتحدى جميع الواقفين
المرهقين من طول الوقوف والانتظار المتطلعين إلى مقعد ينقذهم من هذا
البلاء والعياذ بالله ..

وقالت البيريه :

— وما العمل الآن ؟ ليس لنا إلا أن نواصل السير على الأقدام ،
فجحيم الحر والشمس خير من جحيم هذا الأمل الكاذب والسراب
الحادع ..

ومشى الفرسان الثلاثة في إطراق ويأس ومذلة ... وإذا بأحدهم
يصيح فجأة :

— اقرصوني !.. هل أنا في حلم ؟.. أليس هذا الواقف على ناصية
الشارع شبح تاكسي ؟
فصاح زميلاه :

— نعم ... نعم ... إنه تاكسي بالفعل .. وتاكسي خال ... وسائقه
واقف إلى جواره يتناول فطوره ..
— حقا .. سائقه فارش منديله على الرفرف وعليه الطمطم والفجل
والبصل ...

— جاءنا الفرج !.

وأسرع الثلاثة إلى التاكسي فابتسم لهم السائق وأشار إلى طعامه قائلا :
— تفضلوا معنا !..

فشكروه وانقضوا بسرعة على باب التاكسى يريدون الركوب .. وإذا
بالسائق يمنهم بلطف :
— لا مؤاخذه ... مشغول !..
فصاح الثلاثة فى يأس :
— يا نهار ذى بعضه !.. حتى الفطور مع السواق أسهل من ركوب
التاكسى !.

والتفتت العصا والبريه إلى زميلهما الحمار قائلتين :
— ورغم ذلك معنا ركوبة تسهل لنا الأمور !...
وفطن الحمار وقال :
— ما هو قصدكم من فضلكم ؟!
— لا ... لا شيء ... نحن فقط نتكلم بصفة عامة على سبيل المثال :
لو أباحوا استخدام الحمير لحل أزمة المواصلات ... وجعلوا فى كل حى
من الأحياء موقف حمير كما كان الحال فى القرن الماضى ومطلع القرن الحالى
أما كان هذا أهون من هذا الكرب الذى نحن فيه ؟!
— دعكم من هذا التخريف ولنفكر فى حلول عملية ..
— فكر لنا أنت بعقلك الراجح ..
— يقال إننا فى بلد اشتراكى .. فهل من الاشتراكية أن يستأثر راكب
واحد بالسيارة التاكسى وفيها مقاعد خالية تتطلع إليها أكداس من الجموع
الواقفة ؟!... ولماذا لا يُسمح لمثل هذه السيارة بأن تعرض مقاعدها الخالية
على من يقبل من هذه الجموع شغلها ؟..
— المانع هو أن بعض المسئولين فى بلدنا ينظرون إلى كل حل من زاوية

الاعتراض ، وينتهى الأمر إلى إبقاء كل شيء على حاله ولا داعى لوجع الدماغ !.

فقال الحمار :

— إذن لا داعى إلى وجع دماغنا نحن أيضا .. ما دامت الأشياء لا تؤخذ على سبيل الجد ! .. وبالمناسبة .. عندما عزم علينا السائق الكريم بتناول الفطور معه هل كان جادا حقا ؟

فقالت البيريه :

— أشك ...

فقال الحمار :

— ألم يقل لنا : « تفضلوا معنا » ؟ ..

فقالت العصا :

— هذه العبارة في بلدنا مجرد كلام .. ككل الكلام ! ..

فقال الحمار :

— صحيح ... وأذكر أنه في ذات يوم كنت أسير في الطريق قاصدا مكانا بالذات وإذا بشخص لا أعرفه يشير إلى بالتحية وهو سائر في الاتجاه العكسى قائل لي : « تفضل معنا » ، واستمر في سيره حتى اختفى عن نظرى .. وتركتى أردد عبارته وأتعجب : أتفضل معه ؟ .. أين ؟ .. ولماذا ؟ ..

فقالت البيريه ومعها العصا :

— لا تدقق ! ... أنسيت أننا في بلد الكلام في ناحية والعمل في

ناحية

على شط النيل

لم يكن مشى الفرسان الثلاثة « البيرييه » و « العصا » و « الحمار » في الصباح مشيا حثيثا بل كان دائما مشيا متباطئا متمهلا ، كمن يريد تأمل ما يجري في الطريق وما يبدو من أحوال الناس . وفي طريق الكورنيش كانت « البيرييه » أكثر التفاتا إلى النيل وما يحدث فيه .. ولذلك استوقفت الزميلتين أمام منظر قلما يثير التفات الآخرين .. إنه منظر الصيادين في قواربهم الصغيرة .. وجمد الثلاثة أمام المنظر لحظة ، إلى أن قالت « العصا » :

— وآخرة وقوفنا ؟ قارب صيد عادى ! ماذا في ذلك ؟

فقالت « البيرييه » وهى مستمرة فى مراقبة القارب :

— نعم . قارب صيد عادى مثل بقية القوارب .. ولكن انظروا إلى ما بداخله إنه عالم صغير . متواضع . رب الأسرة هو الصياد الذى يرمى الشباك وهذه زوجته أمام نار وابور جاز تطهو طعاما ، وإلى جانبها طفل رضيع ، والابن الأكبر يساعد أباه ، والأوسط يمسك بالدفة .. وهاهى ذى الزوجة بإشارة من الزوج تمسك بالمجدافين لتسير بالقارب فى الاتجاه المطلوب .

— حقا .. أسرة متكاملة متعاونة .. توزيع العمل فيها يشبه التوزيع الموسيقى .

فبادرته العصا بقولها :

— اسكت من فضلك ! لا تتكلم أنت عن الموسيقى ... لا تذكرنا
بأنكر الأصوات !

واستمرت البيريه فى تأمل القارب وهى تقول :

— لا شك أن سكان هذا القارب الصغير لا يشكون من أزمة الإسكان
ولا يعرفون شيئا عن خلو الرجل وتكاليف الديكور ، ومشكلات الشقق
المفروشة ، والشرفات المطلّة على النيل ، وما تدخلها الشمس ومالا
تدخلها ، وحى الزمالك أو الجيزة أو روض الفرج .. لا شأن لهم بكل
ذلك .. فهذا العالم البسيط الذى يملكونه يستطيع أن يمنحهم حرية
الانتقال من حى إلى حى ، ويستقبلون كل شمس وكل اتجاه ... والنيل
كله لهم ، يحميهم من برد الشتاء بأشعة شمسهم ومن قىظ الصيف بلطف
نسيمه . فلا حاجة لهم بالمعاطف والكوفيات ولا بالحرير والمهفهفات ولا
بطالة عندهم ولا تسكع فيما لا يفيد .

فقال الحمار :

— نعم .. جميل كل هذا ولكن .. حياتهم هذه بين الماء والهواء ترادف
أرزاقهم المعلقة أيضا بالماء والهواء ! إنهم لا يستطيعون أن يطالبوا السمك
فى الماء بمرتب ثابت ! ولا الهواء والسماء بمظلة تأمينات !

فقالت البيريه :

— يظهر أن السماء هى مظلة الذى يعيش فى الهواء . أما الذى يعيش
تحت سقف من الأسمنت والحديد فهو الذى فى حاجة إلى مظلة أخرى غير
السماء .

فقال الحمار :

— ومن قال لكم إن الذى يعيش فى الهواء لا حق له فى المظلة الأخرى

مع مظلة « السماء » ؟ لماذا يحرم ١٩

فقالت البيريه :

— لأنه فى وسط الماء .. كيف نصل إليه ؟ لا هو عامل فى مصنع ولا

فلاح فى غيط ١٩

وتلملت العصا من الضجر وقالت :

— احشروه تحت أى مظلة وخلصونا !

وتحركت بهم لاستئناف المسير .. وساروا ثلاثتهم فى صمت .. إلى أن
أشرفوا على جماعة تتشاجر فى الطريق كان التضارب بالأيدى والأرجل بين
الطرفين .. ولم يقف الفرسان الثلاثة للمشاهدة أو لمعرفة السبب . فهم فى
مثل هذه الأحوال يرون الأصوب تجنب التدخل والابتعاد عن البهدة ..
فأسرعوا فى المشى بعيدا عن الخناقة ، وإذا بشخص من أحد الطرفين قد
انسل من وسط المشاجرة ولحق بهم يريد انتزاع العصا قائلا :

— عن إذنكم .. اسمحوا لنا لحظة واحدة نضرب بها الجماعة الأوغاد

دول !

ولم يكذب كلامه حتى لحق به واحد من الطرف الآخر جاء هو أيضا
ينتزع العصا لنفس الهدف . وقامت بين الاثنين معركة حول العصا
وتراشق بالسباب .. وأمسك كل منهما بجزء من العصا يجذبه ناحيته ..
واشتد الجذب والشد والعصا المسكينة تكاد تنخلع رقبتها فى يديهما وتصبح
بالزميلتين لإنقاذها . ولم تستطع البيريه أن تفعل شيئا غير الكلام بالحسنى

والمنطق قائلة :

- يا اخواننا .. عيب .. هذه العصا ليست للضرب .
ولكن صوتها ذهب هباء بين صخب الشتائم ورعد الصياح .
ولجأت البيريه إلى الزميل الحمار قائلة :
— كيف ننقذ زميلتنا العصا من هذه الورطة ؟! الكلام لا فائدة منه كما
رأيت . ألا تستطيع التدخل بالرفص ؟
فقال الحمار :
— الرفص ؟! أرفص ؟! أنا نسيت الرفص من زمن بعيد ! أنا لم أعد
أستخدم الحافر .. أنا الآن أستخدم العقل !
فقالت البيريه في تهكم :
— العقل ؟! الآن ؟! أفي عالم عاد إلى استخدام الحوافر ؟!

العيون المفتوحة

قالت البيريه :

— فى كتاب قديم لألدوس هاكسلى نشر منذ أكثر من ثلاثين عاما بعنوان — أغبى حيوان — عرفت المقصود من مجرد العنوان ... فمعرفة القديمة بتفكير هاكسلى جعلتنى أدرك المقصود بالحيوان .. فقال الحمار :

— إياك أكون أنا المقصود ..!

فقال البيريه :

— اطمئن .. إنه يقصد الإنسان ... ولقد تحقق ظنى بعد قراءة الكتاب .. فموضوعاته كلها تدور بالفعل حول الإنسان وقضاياه الكبرى ، مثل قضية المساواة البشرية والديمقراطية والعقائدية والترية ونحو ذلك ..

وقالت العصا :

— وما وجه الغباء فى ذلك ؟

فقال البيريه :

— هذا مجرد عنوان .. ولعل المقصود هو أن الإنسان يضع بنفسه قضايا وأفكاره ثم يضحي أحيانا بحياته ودمه فى سبيل الدفاع عنها . مع أنه فى كثير من الأحيان قد لا يقتنع بها كل الاقتناع . وفى أحيان كثيرة أخرى

يتقبلها ويأخذها على علاتها دون أن يفحصها الفحص المتعمق ...
فقلت العصا :

— من الذى يفحص ؟ .. إذا كنت تقصد الإنسان بمعنى الإنسانية كلها فهذا غير صحيح — لأن الإنسانية كلها لا تفحص ... إنما هي تسير خلف نوع نادر من الإنسان هو الذى يفكر ويفحص ويقودها بعصاه .. ويجعلها تقتنع ويدفعها إلى السير إما إلى الأمام أو إلى الخلف وإلى المغامرات أو المهالك حسب الطريق الذى دفعها إليه . صواباً منه أو خطأ ... فالمسئول إذن ليس مجرد الأفكار التى تخرج من رأسك . ولكن تناول العصا لها لتقود بها الإنسانية .

فقال الحمار :

— وما هي العصا ؟ أهى عصا الضرب ؟ ...

فقلت العصا :

— لا بل عصا القيادة . وهذه القيادة ضرورية عند كل اتجاه .. انظروا إلى الطيور المهاجرة تجد أسرابها فى السماء وفى مقدمتها أحدها يقودها إلى الوجهة المطلوبة . وكذلك الحال فى قطعان الحيوانات التى تنتقل فى مجموعات فإن أحدها يسير أمامها ليكون لها دليلاً ومرشداً ومسئولاً عن سلامة القطيع .

فقال الحمار :

— ولكن ... عند فصيلة الحمير لا يوجد حمار يقودها ! ..

فقلت العصا :

— نعم ... لأن الذى يقودها ليس منها إنه الإنسان . يقودها

لأغراضه هو وليس لأغراض الفصيلة .

فقال الحمار :

— وما السبب في ذلك ؟

فقالت العصا :

— السبب هو أنها استؤنست ... استأنسها الإنسان وأخضعها

لإرادته وتولى هو قيادتها لخدمة أغراضه .

فقال الحمار :

— أمن أجل هذا قيل إننا حمير ؟

فقالت البيريه :

— اطمئن يا عزيزنا الحمار .. إن الإنسان أيضا يحدث له ذلك .

فيخضعه إنسان آخر لإرادته ويجعل منه قطيعا يسير خلفه إلى حيث يوجهه . وأحيانا يكون التوجيه سيئا . ويصدق فيه قول الشاعر العربى القديم :

إذا كان الغراب دليسل قوم يمر بهم على جيف الكلاب !
كما أنه فى أحيان أخرى سعيدة يكون طيبا فيسعد به القطيع كله ...
فقال الحمار :

— وكيف يضمن الإنسان عدم خضوعه للإدارة السيئة ؟ إن الطير أو الحيوان أحسن حظا من الإنسان . لأنه قلما يختار قائدا ومرشدا ضعيفا قليل الخبرة بالطريق الصحيح !... إنه يحسن الاختيار دائما لمن يسير خلف قيادته ..

فقالت العصا :

— ١٧٧ —

— وهل الطير أو الحيوان هو الذى يختار قائده أو أن القيادة يفرضها القوى من الطير أو الحيوان ؟..
فقال الحمار :

— فى اعتقادى أن الذى يختار القوى عند الطيور والحيوان هى الطبيعة . والطبيعة قلما تخطئ . وهى تزود من يتولى قيادة السرب أو القطيع بكل ما يؤهله للقيادة السليمة .
فقالت البيريه :

— هذا صحيح . وهو من حسن حظ الطير والحيوان . أما الإنسان فتقع عليه هو مسئولية اختياره لمن يقوده . وعليه هو أن يرسم لقيادته طريق السلامة . بما أعطى من عقل وتفكير وإرادة حرة . إن الطير أو الحيوان يستطيع أن يطير أو يسير خلف قائده بعيون مغلقة لثقتة بالطبيعة التى زودت قاداته بكل ما يؤمن طريق سلامته أما الإنسان الذى عليه أن يختار قيادته بنفسه بغير ضمان من الطبيعة فعليه دائما أن يسير بعيون مفتوحة ...

الثورى والملتزم

قال الحمار :

— كثيرا ما أسمع كلمات تطلق بغير تحديد لمعناها . وأنا مخلوق بسيط صريح واضح أحب دائما أن يكون لكل لفظ معنى محدد . فمثلا كلمة ثورى ، وكلمة ملتزم ، وكلمة ثورية ، وكلمة التزام .. ما هو المقصود من ذلك ؟.

فأجابت « البيريه » :

— أنا أفهمك .. افرض أن أحدا قدم إليك علفا مخلوطا بالتراب ..

ماذا تفعل ؟

فقال الحمار :

— ألعن له والديه وألقى بالelf في وجهه !..

فقالت البيريه :

— هذا لا يكفى . ولا يعتبر ثورة ..

فتدخلت العصا قائلة :

— أضربه وأسيح دمه ...

فقالت البيريه :

— كل هذا يسمى « العنف » .. ولكنه لا يسمى « الثورة » .

فقال الحمار :

— ١٧٩ —

— وما هي الثورة إذن ؟

فقلت البيريه :

— الثورة غير العنف . وقد تحتاج إليه وقد لا تحتاج .

فقلت العصا :

— أهي أحجية ؟ .. أهي « فوزرة » ؟

فقلت البيريه :

— إنها أبسط من ذلك ... ولكن هذه الكلمة التي اختلط بها كثير من الأوصاف كانت تخفي جوهرها الأصيل ...

فقال الحمار :

— وما هو جوهرها الأصيل ؟

فقلت البيريه :

— التغيير .

فقلت العصا :

— الرفض .

فقلت البيريه :

— لا ... الرفض ليس الثورة إنه مجرد سبب . فرفض الأوثان ليس هو

الدين . ولكنه سبب للدين ...

فقال الحمار :

— تقصد أني عندما أرفض العلف المخلوط بالتراب فإنني لا أقوم بثورة

ضده ؟ ..

— رفضك فقط شيء سلبي . أما الثورة فعمل إيجابي . هي بعد الرفض

رؤية للتغيير ، ثم العمل على تحقيق التغيير .
وقالت العصا :

— إذن الرفض ليس هو الثائر . وقد يكون الرفض مجرد مشاغب .
ولن يكون ثائرا إلا إذا كان لديه برنامج تغيير من الممكن تحقيقه عمليا . أما
إذا كان تغييره مستحيل التحقيق فإن عمله يصبح مشابها لرفضه ، أى
يقترّب من المشاغبة أو السلبية ... أو من الأحلام الوهمية .. إن مبدأ
الثورة إذن باختصار هى رؤية أو عمل للتغيير من الممكن تحقيقه عمليا فى
الحاضر أو المستقبل القريب ..
فقالت البيريه :

— نعم المستقبل القريب ... لأن المستقبل البعيد يمكن أن تتحقق فيه
رؤية للتغيير كانت من قبل فى عداد الأحلام .. وهنا يمكن أن نفرق بين
الثورة العملية والثورة الفكرية .. فالثورة العملية مجالها الحاضر أو المستقبل
القريب ، أما الثورة الفكرية فقد يظهر أثرها بعد أعوام طويلة تستكن
خلالها فى وجدان الشعب إلى أن تفرخ .. وقد تكون الثورة العملية وليدة
تلك الثورة الفكرية السابقة ...
فقالت العصا :

— بل يجب على كل ثورة أن تكون وليدة ثورة فكرية حقيقية .
تكون لها بمثابة البذور والجذور .. وإلا كانت مجرد ربح صرصر عاتية
تقتلع ما هو مغروس ولا تنبت زرعاً جديداً ..
وقال الحمار :

— فهمنا الثورة .. فما هو الالتزام ؟.

فقلت البيريه :

— الالتزام هو التمسك بشيء حدث ، والثورة هي النظر إلى شيء سيحدث ...

وقال الحمار :

— إذن عندما أسمع عن مفكر أو أديب أو فنان أنه ملتزم فمعنى ذلك أنه متمسك ومناصر لاتجاه أو فكر أو موقف قد وجد بالفعل ... أما الثورى فهو الموحى أو المتطلع إلى تغيير شيء أو وضع لم يوجد بعد ...

فقلت البيريه :

— هذا صحيح . وها أنت ذا قد عرفت ما كنت تسأل عنه ...

وقالت العصا :

— والآن يا عزيزنا الحمار ماذا أنت فاعل وقد قدم إليك العلف المخلوط بالتراب ؟ ...

فقال الحمار :

— أثور بالطبع ... هذه الثورة المنتجة .. أطالب بالتغيير ، على أساس الحلول الممكنة ... على أن نشترك جميعا لنزيل الفساد ...

فلندع رجل التاريخ للتاريخ

قالت البيريه :

— لقد كنا على حق يوم اقترحنا هنا قبل ذلك « غلق الملفات » مؤقتا
وفي الظروف الحاضرة بعد أن اتضح أن فتحها الذى كنا قد دعونا إليه لم
يسفر عن الوصول إلى حقيقة بقدر ما أدى إلى مزيد من الاضطراب
والشوشة .

فقال العصا :

— فعلا . حتى الملفات التى قصد بها توضيح المواقف بكل صدق
وأمانة وحسن نية فإنها تحدث انطبعا عكسيا .. من ذلك المقال المنشور
فى مجلة روز اليوسف بعنوان « التاريخ السرى لحكم عبد الناصر من داخل
مكتب معلوماته » . فهو على الرغم من كونه مقالا ممتعا وناجحا ومثيرا
من الناحية الصحفية إلا أنه خطير بما فيه من عبارات ذات معنى .

فقال البيريه :

— حقا .. عبارات خطيرة مثل : « عبد الناصر لم يكن يحكم مصر
قبل يونيو ٦٧ .. كانت قوة مجموعة المشير قد تزايدت حتى سيطرت على
كل الأمور فى البلاد ... » و « إن عبد الناصر والمشير عامر كانا يتسابقان
كل فى اتجاه : عبد الناصر يريد أن يمنع وقوع الحرب وعبد الحكيم عامر
يريد أن يخوضها بأسرع ما يمكن » .. المشير ومجموعته يريدون أن

يقوموا بحركة عاجلة ضد إسرائيل ليعودوا بعدها ليحكموا مصر حكم المنتصرين وينحوا عبد الناصر .. ألم يسأل أحد نفسه ماذا كان سيؤول إليه أمر هذه البلاد إذا ما استطاعت قيادة المشير ومن كانوا معه أن تحرز نصرا ولو محدودا في سيناء مع ما عرف عنهم من صفات وميول وأطماع .. فقالت العصا :

— أليست هذه المعلومات تلقى انطبعا بأحد الفريقين المتسابقين ، على حد تعبير المقال ، كان يخشى النصر حتى لا يصل الفريق الآخر إلى الانفراد بالحكم .. وهذا شيء خطير ! .. قال الحمار :

— مثال آخر لحسن القصد الذى يراد به الدفاع عن عبد الناصر فيأتى بعكسه .. ذلك هو ابتداء كلمة « الناصريين » .. إذ أن معناها هو إنزال « عبد الناصر » من زعيم أمة إلى زعيم حزب .. أى أنه بعد أن كان تجسيدا لمصر كلها فى فترة تاريخية من فترات تاريخها الحافل تقصر قامته ويصغر حجمه ليتجسد فى تنظيم سياسى ضمن غيره من التنظيمات الأخرى . قالت العصا :

— وهذا يذكرنا بما حدث مع « سعد زغلول » فإنه كان تجسيدا لمصر كلها ثم أصبح مجرد زعيم لحزب مع بقية الأحزاب . فقالت البيريه :

— هذا صحيح .. ولذلك عندما جسد سعد زغلول الأمة كلها فى فترة من تاريخها وكان معبودها الوطنى كان هو الملهم لكل ما ينبع من الشعور الوطنى مثل كتابنا « عودة الروح » . أما عندما أصبح زعيم

حزب للوفديين أو السعديين مع بقية زعماء الأحزاب كحزب الأحرار الدستوريين والوطنيين والمستقلين الخ... الخ .. فقد تفتت إشعاعه العام الملهم وأصبح تجسيده هو لحزبه وتنظيمه ، وانفرد حزبه وتنظيمه برعايته وصيانتها ، وأصبح استلهامه مختلفا بصفة الحزبية .

فقال الحمار :

— إذن حزب أو تنظيم « الناصريين » إذا قدر أن يتكون فإنه سوف يصبح مثل حزب « السعديين » !..

قالت العصا :

— فعلا .. وبذلك يتضاءل حجم عبد الناصر . ذلك الحجم الذى كان تجسيده التاريخ مصر كلها فى فترة هامة من تاريخها الطويل ، وعلى هذا الأساس عاملناه فى كتاب « عودة الوعي » وحاسبناه كرجل تاريخ .. أما عندما ينكمش حجمه إلى راية لحزب ناصرى أو زعيم لتنظيم سياسى كما يراد له بحسن نية ولا شك ، فإن وضعه يتغير ويترك أمره فى نطاق حزبه وتنظيمه .. وتصبح معاملته عملا حزبيا ..

قالت البيريه :

— إذن كان الرئيس السادات على حق وبصيرة يوم قال : « ارحموا عبد الناصر ودعوه فى مكانه من التاريخ » .

العمل واللعب

قالت البيريه :

— أحيانا تمر برأسى خواطر لا أدري موضعها من الجدد أو الهزل ،
ولكنها على كل حال تجعلنى أقف عندها أتأمل فيها .. من ذلك ملاعب
السرك وما يعرض داخلها من ألعاب يقوم بها الحيوان المدرب .. كل
أنواع الحيوان هناك : من خيول وقرود وماعز ، وكلاب البحر وكلاب
البر ، بل حتى الأسود والثمور والفهود .. بل حتى الأفيال التى كالجبال ..
كل ذلك ما عدا الحمير ! ..

فقال الحمار :

— نعم ! نعم ١٩ ... ما هو قصيدك ١٩

فقالت البيريه :

— لا أقصد شيئاً بالذات . إنما هو مجرد خاطر عابر . هل شاهدت يا
زميلنا العزيز حمارة يلعب فى سرك كما يلعب الحصان ١٩ لماذا يلعب
الحصان ويرقص ويتبختر على أنغام الموسيقى والمزمار والطبل البلدى ..
أما الحمار .

فقال الحمار :

— فصيلتنا لا تلعب .. لأنها تعمل . حيثما يوجد العمل الشاق يوجد
الحمار . على ظهره يلقى بغبيط السباخ . أما الحصان فعلى ظهره يمتطى

الراكب المتأنق ، وفي فمه يوضع السكر ، ويراهن على فوزه الناس في
ميادين السباق .. أيوجد سباق للحمير كما يوجد سباق للخيل ؟ وهل
تفضل أحد بوضع قطعة سكر في فم حمار ، كما يوضع في فم حصان ؟
وقالت العصا :

— ولماذا لا تسأل : كيف قامت الحروب منذ آلاف السنين على ظهور
الخيل ! ولماذا لم تقم على ظهور الحمير ؟
فقال الحمار :

— ربما كانت الحروب تدخل في باب الألعاب أكثر مما تدخل في باب
الأعمال !..

فقالت العصا :

— أتسمى الحرب لعبا ؟..

فقال الحمار :

— أسميها بما كان يسمى استعمال السيف من قديم . ألم يكن يسمى
« اللعب بالسيف » ؟ ثم اسم الحرب في جوهرها ؟ أليست تقوم على
احتمال الفوز والخسارة في ميادين السباق ؟..

فقالت العصا :

— أتريد أن تلغى دور الحرب في دفع العدوان واسترداد الحقوق
المغتصبة ؟

فقال الحمار :

— وقبل العدوان واغتصاب الحقوق ؟ ماذا كان على الأرض ؟
فقالت البيريه :

— صدقت يا زميلنا العزيز .. فى الأصل كان على الأرض العمل .. ثم
بعد الفراغ من العمل كان اللعب .. ومن اللعب نبعت المنافسة والمبارزة
والغالب والمغلوب والفائز والخاسر ..

فقال الحمار :

— ثم ظهر الطمع .. وانقلبت لعبة الفائز والخاسر والغالب والمغلوب
إلى وسيلة للظفر بما فى أيدي الآخرين . وكان العدوان . ثم رد العدوان .
وكانت الحرب ..

فقالت العصا :

— معنى ذلك أنه لولا اللعب ما كانت الحرب !؟

فقالت البيريه :

— بل معناه أنه لولا الطمع ما تغير وجه اللعب ..

فقال الحمار :

— إذن لو اتيح للبشرية أن تخط مصيرها من جديد وألغت الطمع من
الوجود فسوف يختفى العدوان ويصبح اللعب بريئا من كل سوء ... ولا
يبقى على الأرض غير العمل ..

فقالت البيريه :

— هذا صحيح ..

وقالت العصا :

— وبذلك يا عزيزنا الحمار تنال ما تتمنى !..

— ١٨٨ —

فقال الحمار :

— وهل يوضع فى فمى السكر ؟..

فقالت البيريه :

— هذا أقل ما يجب !..

فقال الحمار :

— ومع ذلك ... لست أدرى هل سيروقى لى طعم السكر كما يروقى

للحصان ؟.. إنى قانع بقليل من العناية والتقدير وأن يوزن العمل بوزن

اللعب ..

تراخى الإيقاع

قالت العصا :

— إن المتأمل فى حياتنا يستطيع أن يرى ظاهرة واضحة تشمل كل شيء : تلك هى ظاهرة التراخى فى كل حركة .. فى العمل وفى اللهو . فى الجدل وفى الهزل .. فى حين أننا نرى عكس ذلك فى البلاد المتقدمة ..

قالت البيريه :

— هذا صحيح .. إن إيقاع الحياة فى بلادنا مشابه لإيقاع الموسيقى عندنا .. هل سمعت فى أى بلد متقدم أغنية تستمر أكثر من ساعة بنغمة واحدة وكلمات واحدة تظل تتكرر وتتكرر وكأن الزمن قد تسمر ١٩
قال الحمار :

— إذن هناك علاقة بين إيقاع الموسيقى وإيقاع الحياة فى أى بلد من

البلاد ١١

قالت البيريه :

— بدون شك ... لأن الموسيقى هى تعبير عن إحساس . وعندما يقل الإحساس بحركة الزمن عند بلد أو شخص من الأشخاص فإن ذلك يظهر فى حركة أعضائه ، وفى حركة تفكيره ...

قالت العصا :

— على ذلك فإن إيقاع التفكير وإيقاع الإنتاج غير منفصل عن إيقاع

الموسيقى ١٢.

قال الحمار :

— أنا لا أفهم كثيرا في الموسيقى . ولكن يظهر أن الإيقاع يختلف باختلاف العصر والزمن . ففي عصر استخدام الدواب كان الإيقاع ولا شك مختلفا عن الإيقاع في عصر استخدام القطارات والطائرات ...

قالت البيريه :

— طبعا . وإذا كان الفن صادقا فلا بد أن يكون متفقا مع نبض الحياة

التي ينبع منها ..

قالت العصا :

— وإذا كان نبض الحياة والزمن سريعا واستخدمت عندئذ القطارات والطائرات وبقي الفن متراخيا في بلد من البلاد ، كما كان في عصر الدواب ١٢

قالت البيريه :

— هذا إذن ما يسمى المتخلف .

قال الحمار :

— ومن المسئول ؟ الفن ؟ أو البلد ؟ .. إذا كان البلد هو المتقدم ، وقد نضج إحساسه بإيقاع العصر والزمن فإنه سيرفض الفن المتخلف ..

قالت البيريه :

— تريد أن تقول إن الفن المتخلف لا يمكن أن يعيش إلا في بلد

متخلف ؟ ..

قال الحمار :

— أظن هذا هو المنطق ...

فقالت العصا :

— هذا شيء يدعو إلى اليأس .. إذا كان هناك مثل هذا الانسجام التام بين الفن والبلد في هذا التخلف ، فكيف يحدث إذن التقدم ؟! ..

قالت البيرية :

— إن التقدم يحدث دائما من صيحة .. صيحة تهز المتراخين ، وتحرك المتكاسلين في نعاسهم الذي اعتادوه !.

فقالت العصا :

— لو كان الصياح ينفع لحدث التقدم منذ زمن طويل ..

قال الحمار :

— ليس المقصود هنا الصياح بالفم ، ولكنه الصياح بالعمل ...

فقالت البيرية :

— ها هو ذا صديقنا الحمار قد فهم ... فعلا هذا هو المقصود والمعول عليه دائما ... الصيحة الفعلية في عمل فعلى ...

قالت العصا :

— وهل العمل المتقدم الجديد يلقي دائما التأييد ؟! ..

قالت البيرية :

— كل عمل متقدم جديد هو ثورة ... وكل ثورة تواجه في أول أمرها برفض واعتراض من الكثيرين المستنيمين للقديم ، ولكن يكفيها قلة من

— ١٩٢ —

المؤمنين بها والمتحمسين ...

قال الحمار :

— حقا ... ليس من السهل إيقاظ نائم متلذذ بنومه دون أن تسمع منه
الشتم واللعن لأنك أيقظته ... ولكنه لابد أن يستيقظ وينشط للسير معك
إذا أقنعته بعمل في يدك يجد فيه الخير له ..

السياسة بين الفكر والعمل

قالت العصا :

— من الملاحظ أن كثيرين من أهل الفكر يتعدون عن الالتحاق بالتنظيمات السياسية ، مع أن منهم المؤيد بفكره لبعض برامجها كما أن منهم المساهم برأيه في صياغة هذه البرامج أو تجسيد مراميها أو الموحى بأهدافها ..

فقلت البيريه :

— لعل السبب في ذلك هو أن رجل الفكر الراض للانتماء إلى التنظيم يدرك الفرق بين الفكر السياسي والعمل السياسي ، كما يدرك أن العمل هنا يدخل فيه « التكتيك » والمفكر إذا اشتغل بالتكتيك انقلب إلى سياسي .

قال الحمار :

— وما هو المانع ؟.. أليس من النافع أن يقترن الفكر بالعمل ؟..

قالت البيريه :

— هذا صحيح . ولكن في مجال السياسة العمل يتخذ صورا كثيرة يحتاج بعضها إلى وسائل وأساليب « تكتيكية » لا يحذقها ولا يفهمها الكثير من أهل الفكر ..

قالت العصا :

— وإذا استطاع رجل فكر أن ينجح أيضا كرجل حزب أو تنظيم فهل

(تحديثات سنة ٢٠٠٠)

يغير هذا من صفته ؟

قال الحمار :

— المهم أن يغير أولا من طبيعته .

قالت البيريه :

— فعلا . يجب أن نعرف طبيعة رجل الفكر .. لقد كان « جوركى » متفقاً تمام الاتفاق مع « لينين » في الفكر وفي الهدف ، ولكنه لم يستطع أن يسير مع صديقه في مشواره السياسى ، وآثر الانزواء . لقد جمع بينهما الفكر وفرق بينهما العمل ..

قال الحمار :

— ما هو العمل الآن ؟ .. ذلك الذى يفرق بين أصدقاء الفكر

الواحد ؟

قالت العصا :

— إنه ليس العمل الذى تعرفه أنت يا صديقنا العزيز .

وقالت البيريه :

— إن العمل السياسى شئ مختلف .. إنه العمل على تحقيق الأهداف والمناهج والبرامج الصادرة عن الفكر السياسى بالوسائل والأساليب الموصلة إلى ذلك . وهنا موضع التباعد بين رجل الفكر ورجل السياسة . إن جوهر الهدف واحد للرجلين فى أكثر الأحيان ولكن وسيلة الوصول إلى الغاية هى التى تباعد بينهما . فرجل السياسة يرى ضرورة الحصول على

السلطة ليحقق الغاية ولا بأس عنده أحيانا من « تاكتيك » يقوم على مبدأ « الغاية تبرر الوسيلة » وهي طبيعة واستعداد .

قال الحمار :

— هلى هذا أسلوب لما يسمى بالتاكتيك أن يكون قائما على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، أى على حد تعبير المثل الشعبى « اللى تغلب به العب به » !!
قالت البيريه :

— لا . ليس هذا حتميا ولا ضروريا . فالأصل فى الوسيلة أو التاكتيك فى مجال السياسة أن تكون وسائلها داخلية فى نطاق مبادئها . فالخروج عن المبدأ السياسى واستخدام وسيلة للوصول تتعارض مع جوهر المبدأ الأصيل هو نوع من التاكتيك غير مستحسن ، وقد يكون خطرا على المبدأ نفسه ..

قالت العصا :

— ولكن هذا لا يمنع من أن يلجأ العمل السياسى إلى أسلوب المناورة والمداورة لكسب قضيته ..

قالت البيريه :

— طبعا فى نطاق ما هو مشروع .. فالعمل السياسى يجب أن يعمل دائما على كسب قضيته .. وإلا لما سمى عملا وهنا يبرز الفرق الحقيقى بين رجل الفكر ورجل السياسة . إن القضية عند الاثنين واحدة : وهى العدالة والحقيقة . ولكن المفكر نظر إلى القضية من زاوية القاضى ،

— ١٩٦ —

والسياسي ينظر إليها من زاوية المحامي .

قالت العصا :

— حقا .. إن القضية عند القاضي هي البحث عن مكان الحقيقة ،
والقضية عند المحامي هي الدفاع عما يراه هو الحقيقة ...

قال الحمار :

— والبحث موضع حيرة وتناقض . ولذلك قد يكون رأى القاضي في
الابتدائي غيره في الاستئناف أو النقض . أما المحامي فرأيه ثابت وخطه
محدد في كل المراحل ... كذلك الفكر فهو عرضة للتغيير أما العمل فهو
الثبات والتقرير .

الفنان والجمهور

قالت العصا :

— قضية الفنان والجمهور قديمة . وهى تثير التساؤل : هل من واجب الفنان أن يحترم الجمهور فى كل الأحوال ؟ ..

قالت البيريه :

— أذكر فى ثلاثينيات هذا القرن أن حضرت المهرجان الفنى الكبير الذى يقام فى مدينة سالزبورج ، وكان من أهم برامج حفلات الموسيقى العظيم «توسكانينى» وهو فى قمة المجد العالمى . ومن الجماهير من حضرت خصيصا من أجله قادمة من كل فج عميق . وأنا منهم . فما أن ظهر حتى دوت القاعة الواسعة بتصفيق هز أركان المكان هزا ، فما الذى فعله ذلك الفنان ؟

قال الحمار :

— التفت طبعاً إلى الجماهير وانحنى لها طويلاً ...

قالت البيريه :

— على العكس أدار ظهره للجماهير والتفت إلى فرقته الموسيقية وأمرها بالشروع فى العزف .

قالت العصا :

— ما معنى هذا ؟! . أهو عدم احترام للجمهور ؟!

فقلت البيريه :

— معناه احترام للفن . فهو قد أراد أن يفهم ذلك الجمهور أن تصفيق التحية يجب أن يوجه للفن وليس لشخصه . لأن شخصه لا يساوى شيئا بغيره . ولكي تكون التحية للفن يجب أن تكون التحية والتصفيق بعد أن يؤدي هذا الفن ويعرضه . ولذلك رفض أن يجعل شخصه يلتفت ليتقبل التحية قبل عرض الفن ...

وهنا سأل الحمار في عجب :

— وماذا فعل الجمهور ١٩.

قلت البيريه :

— فهم الجمهور قصده وصمت في الحال تأديها ، وجعل يهتف إلى الفن في سكون وخشوع — إلى أن انتهى العزف فالتفت الفنان توسكاني إلى الجمهور الذي استقبله بالتصفيق المدوي ، وعندئذ فقط انحنى الفنان العظيم للجمهور . وقد تقبل منه التحية والتقدير ، مسرعا بالإشارة إلى فرقته كلها كي تنهض لتقبل معه ما تقبل باسمها من تحية وإعجاب ...

فقلت العصا :

— حقا . هذا احترام للفن .

قال الحمار :

— وهذا أيضا احترام للجمهور . لأن الجمهور الذي يستحق

الاحترام هو الجمهور الذي يحترم الفن ..

قلت البيريه :

— إن الجماهير في البلاد المتحضرة لا يمكن أن تصفق تحية للفنان إلا بعد العرض . ولعل ما رأيته في حالة توسكانينى كان استثناء لظروف سنه في أواخر أيامه فلم تملك الجماهير نفسها من تحيته عند رؤيته ، ولكن عندما صحح لها تصرفها وذكرها بواجبها نحو الفن فهمت في الحال حقيقة الموقف وما ينبغى أن يكون التصرف ...

قالت العصا :

— أذكر أن الأمر كان يحدث على هذا النحو حتى في بلادنا في العشرينات والثلاثينات وما قبلها . كانت جماهير المسرح لا تصفق للممثلين إلا بعد العرض . أما اليوم فإنه ليدهشنى ويخجلنى أن أرى الجماهير تستقبل كل ممثل يظهر بالتصفيق ، وهو يترك دوره وينسلخ من فنه لينحنى وينحنى ليستدر التصفيق ، على نحو يثير الرثاء على مصير الفن وكرامة الفنان الذى هبط إلى شحاذ يستجدى التصفيق ...

وعاد الحمار يسأل :

— وعلى من تقع المسئولية ؟ على الجمهور الذى يصفق قبل عرض الفن ، أو على الفنان الذى ينحنى متقبلا التحية لشخصه قبل أداء فنه ؟ ..

قالت البيريه :

— المسئولية كلها تقع على الفنان . لأن الفن هو الذى يرى الجماهير ويهذب ذوقها ويغيرها ويشكل مصائرهما . فالفنان الحقيقى الذى يفعل ما فعل توسكانينى عليه هو أن يصحح تصرف الجمهور بكل هدوء ، بأن

— ٢٠٠ —

يعتبر التصفيق في وقت غير مناسب كأن لم يكن ، ويمضى هو في عرض
فنه ، حتى يفهم الجمهور السلوك القويم تجاه الفن والفنان ...
قالت العصا :

— نحن نتكلم عن الفنان ... الفنان الحقيقي الذى يحترم الفن قبل أن
يحترم الجمهور . ولكن .. هل هو موجود عندنا إلا فى النادر ؟ ..

كتابة التاريخ

كان الموضوع الذى يشغل الفرسان الثلاثة « العصا » و « البيريه » و « الحمار » هو موضوع كتابة التاريخ ..

فقلت العصا :

— هل المعول عليه فى كتابة التاريخ هى الوثائق الصماء أو شهادة الأحياء ؟

فقلت البيريه :

— وما هى الوثائق الصماء ؟ .. إنها شهادة الأحياء فى عصرها ... إلا إذا كان المقصود هو كتابة تاريخ معاصر لم يزل شهوده على قيد الحياة عند تدوينه، فمثلا عند كتابة ثورة قديمة مثل الثورة العراقية لا يمكن أن يوجد أحد من الأحياء اليوم قد عاصرها فليس من وسيلة لمعرفة ما حدث فيها إلا الرجوع إلى تلك الوثائق الصماء أى المدونات والكتابات ، أى شهادات مدونة لمن كانوا أحياء فى وقتها .

فقلت العصا :

— وما القول إذا كان المطلوب كتابة تاريخ فترة لم يزل شهودها من الأحياء ؟

فقلت البيريه :

— فى هذه الحالة يكون من الواجب الاستماع إلى شهادة الأحياء إلى

جانب الاطلاع على الوثائق الصماء . ولكن قبل كل شيء لابد من تحديد القائم بعملية التدوين . هل هي الدولة أو الأفراد ؟ إذا كانت هي الدولة فإن الدولة لا تقوم بوظيفة المؤرخ ، ولكنها تتيح للمؤرخ أن يؤلف ، بأن تضع تحت يديه ما لديها من وثائق رسمية صماء وعليه هو أن يستخرج منها الحقائق مستعينا في ذلك بشهادة المعاصرين ومعايناته الشخصية . كما فعل أمثال ابن إياس والجبرتي ..

فقال الحمار :

— إذن الدولة لا تكتب التاريخ . حتى وإن استعانت في ذلك بمؤرخين ؟ ..

فقلت البهريه :

— استعانة الدولة بمؤرخين أو تأليف المؤرخين في ظل الدولة يذكرنا بما كتبه المؤرخون في روما عن كليوباترا التي كانت روما تعتبرها العدو الذي احتطف حكامها العظام يوليوس قيصر ومارك أنطونيوس . ولذلك أشبعها مؤرخو روما في ذلك العهد تجريحا وتشهيرا ، وصوروها في صور العاهرة الشرقية الفاجرة ، ثم أنصفها بعد ذلك المؤرخ الإغريقي بلوتاركس بإظهارها في صورة أخرى .. ولذلك ليس للدولة أن تكتب هي التاريخ ، حتى وإن كانت في كتابته أنزه المؤرخين ، ولكن عليها أن تصدر الوثائق الرسمية التي يستمد منها المؤرخون ما شاعوا تحت مسؤولياتهم الشخصية .

فقال الحمار :

— وهل هذا يحقق صدق التاريخ ؟ .. أو أنه يساعد على اضطرابه

وخلطه وتعدد صورته تبعاً لتعدد المتناولين من المؤلفين المختلفين في نظراتهم واتجاهاتهم ؟ ..

فقلت العصا :

— فعلاً هذا لا يحقق صدق التاريخ ، ولكنه يحقق إبراء الدولة من تهمة استخدام سلطتها في كتابة تاريخ قد يوصف بأنه مغرض أو موجه ...

فقال الحمار :

— يعنى على أى وضع كتابة التاريخ لا تسلم من المخاطر .

فقلت العصا :

— نعم . لأن التاريخ شهادة كشهادة الشهود في أى قضية أو حادثة . أو أى محضر جلسة في محكمة من المحاكم تجدد الشهود قلما تتفق تماماً وبالنص الواحد على صورة واحدة من صور الوقائع . وإن هى فعلت بهذه الدقة الحرفية شك القاضى في الشهادة وخشى أن تكون ملفقة أو مرتبة ترتيباً ذكياً ماهراً لا يعكس الحقيقة تماماً ..

فقال الحمار :

— وكيف تعرف الحقيقة إذن والصدق في التاريخ ؟

فقلت العصا :

— الله أعلم ...

وقالت البيريه :

— نعم — الله أعلم — ولكن على قدر اجتهادنا نحن البشر فإن استخلاص الصدق أو الحقيقة قد نصل إليه عن طريق مناقشة الشهادات ومواجهة بعضها ببعض والمقارنة بينها ووزنها كما توزن الدنانير الذهبية

— ٢٠٤ —

لنعرف ثقل كل منها ، لنخرج من كل هذا الفحص بما هو أقرب إلى التصديق .

فقال الحمار :

— أظن هذه هي وسيلتنا المتاحة لنا ... أما إذا لم نجد أمامنا سوى مؤرخ واحد أو شاهد يروى لنا قصة واحدة بصورة واحدة ، فليس لنا إذن أن نقارن أو نزن أو حتى أن نفكر . فقد تجمدت عقولنا على هذه الصورة وعندئذ نحن وحظنا . إذا كانت صادقة فالحمد لله . أما إذا كانت زائفة فإننا لله وإنا إليه راجعون ..

مأساة العظماء

قالت العصا :

— من عجائب الأمور أن هناك صنفا من الناس يمكن أن يكونوا أبرياء ومذنبين في عين الوقت . فهم لم يرتكبوا الذنب ومع ذلك يحاسبون عليه ...

قال الحمار :

— كيف يكون ذلك ؟.. هل يعقل أن يقوم غيرى بعمل خاطيء وأنا الذى يتهم بالخطأ ؟! لعل المقصود هنا هو الجهل بوجود الفاعل الحقيقى ...

قالت العصا :

— إذا كان الأمر كذلك كان عجيبا ولكن العجيب هو أن الفاعل الحقيقى معروف . ولكنه ليس هو الذى يتحمل نتيجة الخطأ . وليس اسمه هو الذى يقترب بهذا الذنب على مر الأيام والأعوام ..

قال الحمار :

— هذا عجيب حقا !..

قالت البيريه :

— فعلا . لو كان الأمر يتعلق بالشخص العادى لكان ذلك عجيبا . ولكن المفهوم أن ذلك لا يحدث فى الغالب إلا للقادة والزعماء . فما من

أحد على مر الأيام والأعوام إذا ذكرت موقعة — واطرلو — الشهيرة لم يعتبرها هزيمة ! لقد اقترن اسمه بهذه الهزيمة وتحمل نتائجها ونفى طول حياته إلى أن مات في منفاه وحيدا شريدا ملعونا من الناس كل هذا وهو في الحقيقة لم يكن السبب في الهزيمة . فقد خطط للموقعة بكل دقة وعناية وواجه غريمه ولنجتون وكاد ينتصر عليه . وجعل ولنجتون يصيح في المعركة — إذا لم ينقذنا حليفنا بلوخر بجيشه البروسي فإن نابليون سوف يخرطنا كما يخرط البطاطس — !..

قالت العصا :

— حقا . ولم يكن نابليون مع ذلك غافلا عن جيش بلوخر . لقد وضعه في حسابه وتخطيطه . وخصص له جيشا مستقلا بقيادة جروشي أحد مارشالاته .

قالت البيرية :

— نعم .. هذا المسئول الحقيقي عن هزيمة واطرلو .. لقد أفلت منه بلوخر ولحق بحليفه ولنجتون . فما شعر نابليون إلا وجيش بلوخر البروسي أمامه يساند ولنجتون . بينما هو وحده في الميدان بجيشه المرهق يصرخ متلفتا :

— أين جروشي ؟ أين جروشي ؟ ...

أما مارشاله جروشي بعد أن أفلت منه جيش بلوخر فقد وقف في مكانه متبلدا يسمع مدافع نابليون ولا يخطر له أن يسارع إلى الانضمام إليه ليقوم بنجده ..

قال الحمار :

— ٢٠٧ —

— هذه مأساة ..!

قالت البيرية :

— نعم . مأساة حكم التاريخ على العظيم الذى يتحمل أوزار غيره ...

قال الحمار :

— وهذا المارشال المهمل الذى كان سببا فى هزيمة واترلو ..؟

قالت البيرية :

— عاش إلى سن الحادية والثمانين فى قصره ..!

قالت العصا :

— ألا يمكن أن تسمى هذا ظلما من التاريخ ..؟

قالت البيرية :

— إن محكمة التاريخ ليست مثل محكمة الجنايات . إنها لا تهتم بالفعل

إنها تهتم بالنتيجة . ولا تهتم بالفرد . إنها تهتم بالأمم ..

قال الحمار :

— وما ذنب العظيم الذى يتحمل هذا الظلم ؟

قالت البيرية :

— ذنبه أنه عظيم ..! أى ذلك المخلوق الذى كتب عليه أن يقود أمته ..

فليتحمل هو إذن هذه القيادة ..

قال الحمار :

— يظهر أن داخل كل عظيم مأساة .

— ٢٠٨ —

قالت البيريه :

— نعم . ولهذا كانت المآسى الإغريقية وما سار على نهجها تدور حول
العظماء والقادة ...

قالت العصا :

— لأن مأساة الفرد العادى لا تلحق إلا بالفرد . أما مأساة العظيم فإنها
تلحق بالأمة وتغير وجه التاريخ ..

ذكریات

اليوم أقبل الصيف ، وجاء موسم الإجازات وطاب للكائنات
المكدودة الركون إلى الراحة والاسترخاء ، فقد انصرف الفرسان الثلاثة
« العصا » و « البيرييه » و « الحمار » عما يثقل على النفس ، بحثا عن
حديث هين لين .

فكانت البقية في حديث الذكريات ..

قالت العصا :

— من منا يا ترى الأقدم ؟ ... ربما كنت أنا ... فقد وضعت يدي في
يد صاحبي في آخر العشرينات ..

فقالت البيرييه :

— بل أنا الأقدم ... فقد وضعني صاحبي على رأسه في أوائل أو وسط
العشرينات ا.

فقال الحمار :

— أنا إذن أقدم الجميع . فقد عرفني صاحبي منذ نحو سبعين عاما ا.

قالت البيرييه :

— فليذكر إذن كل منا الظروف والملابسات التي تم فيها اللقاء . أما أنا
فقد كان لقائي به في باريس . ولم أكن أول ما وضع على رأسه . فقد
سبقتنى قبعة ميزانية اللون ، لم يلبث أن نبذها واستبدل بها أخرى سودا

(تحديات سنة ٢٠٠٠)

عريضة الأطراف مما يضعه الفنانون في مونتارتر في ذلك العهد البعيد .
ولكنها أتعبته لاضطراره إلى رفعها كلما أراد التحية ، إلى أن اهتدى أخيرا
إلى أنا ... أى البيرييه ، فقد وجدنى مريحة مثل الطاقية المصرية يستطيع أن
يطويها ويدسها في جيبيه ، ولا يحتاج إلى رفعها للتحية .. واحتفظ بى
وأدخلنى في مصر وجعل يكتب عنى ويروج لى حتى كثر من يلبسنى ، لما
عندى من مزايا السهولة في اللبس والرخص في الثمن والشبه بالطاقية
البلدية . وعم استعمالى حتى شملت الجيش والشرطة. ولكن العجيب أنى
في باريس اليوم كدت أنختفى من فوق الرؤوس ... فالرؤوس الآن
عارية ..

قالت العصا :

— أما أنا فقد كانت معرفتى به مرتبطة بعمله في القضاء . فهو عندما
عينوه وكيلا للنياية في الأرياف ، كان يقوم لتحقيق الجرائم ومعه سكرتير
كهل ابيض شعره وجعل له وقارا ، فكان رجال الأمن في الريف من عمد
وشيوخ خفر يستقبلون السكرتير بالاحترام على أنه وكيل النياية ،
ويحملون الوكيل الأصيل لمظهره الشاب ويحسبونه هو المرؤوس . فأشار
بعض العارفين المجربين على صاحبنا أن يحمل عصا لتوحى بأنه هو
الرئيس ، إذ لا يعقل في الريف أن يكون المرءوس هو الذى يحمل العصا في
حضره رئيسه .. واشترانى وحملنى في يده ، فلم يخطئه بعد ذلك العمد
والخفراء ، فما أن يحل في مكان حتى يهرع إليه الجميع موقنين أنه وكيل
النياية ... ومنذ ذلك الوقت الذى يقرب من نصف قرن وأنا أأزمه
ملازمة ذراعه فقد أصبحت عادة من عاداته الراسخة ، بغير مصاحبتى له

وانكائه على يتعثر في طريقه ، وخاصة اليوم في شيخوخته .

قال الحمار :

— أما علاقتي أنا به فهي أعرق وأوثق . فقد ارتبط صباه بصباي .
كان صبيا يلعب في الغيط بقريته الصغيرة ، وكنت جحشا أفرح وأقفر إلى
جانبه وسط البرسيم الأخضر الينع كلما هل الربيع ... فنشأنا معا .
وذهب هو إلى المدن ، وبقيت أنا في الريف ، ولكنه كلما جاء إلى القرية
سأل عني ونعود نتناجى بغير لغة كلام فكل منا يفهم الآخر بغير حاجة إلى
حديث ، وقد رق لحالي عندما رآني في كبرى يلقي على ظهري غبيط
السباخ وأعمل وأكدح طول يومي من أجل حفنة فول أو شعير ، فكان
يوصي لي خيرا ... ثم كنت دائما في ذاكرته وعلى لسانه وسن قلمه ،
يجري باسمي الأحاديث ، ويدافع عني وعن الكادحين المظلومين من أمثالي
ويحاول أن يزيل ما لحق بي منذ القدم من صفات الذلة والمهانة والسخرية .
فقرن اسمي باسمه ..

وهنا ضحككت « العصا » و « البيريه » في وقت واحد .

فقال لهما الحمار :

— ما الذي يضحككما في هذا ؟ .

فقالت العصا ومها البيريه :

— تذكرنا يوما مر فيه بائع كتب متجول ينادي على المقاهي بكتاب
« حمار الحكيم » فاستوقفه أحد المشتريين وطلب نسخة وهو يقول : بكم
كتاب « الحكيم الحمار » وقال له زبون آخر : « حمار الحكيم » ؟ . هل
« توفيق الحكيم » غير اسمه ١٩ .

— ٢١٢ —

فقال لهما الحمار :

— ما دمتم تريدون الضحك فإليكم ما حدث يوما في جلسة جنح
حضرها صاحبنا : أتهم شخص بأنه سب أحد البيكوات بقوله له « يا
حمار » . فقال له القاضى : « كيف تقول للبيك يا حمار ! فقال المتهم :
هل الى يقول للبيك يا حمار يعاقب ؟ .

فقال له القاضى : طبعا يعاقب . فقال المتهم سائلا : « والى يقول
للحمار يا بيك ؟ فرد القاضى : هذه ليس فيها عقوبة ... فأسرع المتهم
يقول للقاضى : طيب سعيدة يا بيك !!

الحب في جهنم

طابع الصيف عندنا في أكثر أيامه غبار يعمى الأبصار . الحر لافح يشوى الوجوه ، وشمس تلقى على الرؤوس نارا من جهنم والعياذ بالله . والويل لمن يمشى في الطريق ساعة الظهيرة . فما من شجرة تظله وتدرأ عنه السعير .. وشاء الحظ العاثر للفرسان الثلاثة : « البيري » و « العصا » و « الحمار » السير في ذلك الوقت في أحد الطرقات ، وقد أرهقهم القيظ وقطع أنفاسهم وأسال العرق على أجسامهم ، وهم يشتدون في المشى للخلاص من هذا الكرب والوصول إلى البيت ... وإذا بشخص قد اعترض طريقهم وقال في أدب :

— من فضلكم .. أسمحون لي بسؤال ؟.

فقال العصا في صوت ضيق :

— أظن الوقت غير مناسب ..

فقال الشخص :

— إنه مجرد سؤال بسيط ..

فقالت :

— اسأل بسرعة ، لأن الحر شديد كما ترى !.

فقال الشخص :

— سؤالى هو .. هو ..

فقلت العصا :

— أظن تريد أن تسألنا عن اسم شارع ..

فقال الشخص :

— لا .. لا .. ليس السؤال عن شارع .. إنما هو عن .. عن ..

فقال الحمار نافذ الصبر :

— تكلم يا حضرة المحترم .. تكلم وخلصنا ... عرقنا سال من هيب

الشمس وجحيم الحر ...

فقال الشخص :

— حالا .. حالا .. سؤالى بسيط .. أريد أن أعرف فقط وأسأل

حضراتكم : ما هو الحب ؟ ..

فصاح الثلاثة في نفس واحد :

— الحب ١١؟

فقال الشخص :

— نعم الحب .. إنه شيء يبدو بسيطاً واضحاً بديهياً ولكن إذا نحن

تعمقنا فيه وحاولنا دراسته بأناة وصبر وتفصيل فإن أغواره تكشف لنا عن

غوامض وغرائب ومفصلات .. ولا بأس أن أقص عليكم قصة على سبيل

المثال .. طويلاً بعض الشيء ولكنها تستحق أن ..

وقاطعه الثلاثة وقد هموا بالانقضاء عليه :

— أنت الذى تستحق أن ١١.

أرادت العصا أن تنزل على أم رأسه .. ولكن « البيريه » استوقفتها

وهى تقول :

— بل الذى يستحق هو نحن الثلاثة .. نحن الذين استمعنا إليه
وصدقناه وهو يقول إن سؤاله بسيط ..
وقال الحمار :

— مهلا .. مهلا .. نسمع القصة أولا ..

وتشجع الشخص وقال :

— قصة طريفة والله العظيم .. اسمعوها أولا ثم احكموا ..

فقالت العصا وهى تتلفت حولها :

— لو كان هنا على الأقل شجرة نستظل بها ..

وقالت البيريه :

— أمرنا الله .. تفضل قص القصة واختصر من فضلك وارحمنا يرحمك

الله من نار الجحيم ويدخلك بمشيئته ورضوانه جنة النعيم ..

فقال الشخص :

— جميعا إن شاء الله ! ..

فقالت العصا والبيريه :

— طبعاً لنا النعيم .. فقد استوفينا الآن بعض نصيبنا من الجحيم ..

فقال الشخص :

— لا يوجد على الأرض جحيم أفضح من جحيم الحب !

فقال الحمار :

— يا حفيظ .. يظهر أنك مكوى .

فقال الشخص :

— ومشوى ..

واشتد لفح الشمس وأسالت شواظ العرق من الفرسان الثلاثة وهم لا يدرون ماذا يفعلون ، وقد تورطوا ولم يبق أمامهم إلا الصبر واحتمال الاستماع إلى القصة الطويلة التي يريد أن يقصها عليهم بتفصيلها هذا المحب الوهّان والمُعذب التعبان .. ولا يدري غير الله كم مر بهم من وقت وهم يتقلبون على جمر ذلك الحب الذي يصغون كرها إلى قصته وليس لهم فيه ناقة ولا جمل ، إلا رائحة الشواء والكي من أجسادهم المحترقة ، ليس بالحب ، ولكن بالكرب ... وقد أقسموا في نفوسهم أن لا يقفوا بعد اليوم لشخص يريد طرح سؤال ، في أيام الصيف الطوال ..
وهنا قالت العصا :

— الحمد لله أن أعصابنا لم تفلت منا فيحدث ما لا تحمد عقباه ..
فقال الحمار :

— إذا كنا لم نحتمل الكلام في الحب فكيف بالكلام في غيره ١٩ يظهر
أننا في حاجة إلى إجازة في أشهر الصيف
قالت البيريه :

— فعلا .. إني لم أعد أطيق .. ليس الكلام فقط بل حتى التفكير ..
من رأيي أن نسكت .. ونستريح ونريح .. ولنفترق الآن على خير ..
سلام ..

وقاموا إلى الإجازة .. ومعهم .

هكذا تكلم عبد الناصر

ثورة ناصر تستقبل اليوم عامها العشرين بغير ناصر. هذا ما يردده الناس اليوم ولا شك أجمعون . ولكن وجود الجسد ليس هو كل الوجود . ولا هو بالأمر المهم في حياة الخالقين . إن الخالق موجود دائما في عمله . وهو يعيش حياة هذا العمل .. ويعرف أن حياة عمله تطول وتقوى بالتغذية المستمرة ، وتزهو وتجميل بالأثواب المتجددة ، وتضيء وتتوهج بمشاعل التطويرات المبتكرة . وهو يطل دائما بروحه المرفرفة فوق عمله ، وكأنه يقول للناس : « إياكم أن تدعوا عملي يذبل بالإهمال أو يغمى بالتجميد . شذبوا من أغصانه الصفراء ، وألقوا بجذوره في ناره الخامدة . أتموا من عملي ما لم يتم ، وقوموا منه ما لم يستقم . ولا تنهزموا أن عملا من الأعمال التي يقوم بها الإنسان أو تبدعها الطبيعة يمكن أن يصل إلى الكمال . فالطبيعة تصحح نفسها باستمرار وتعديل وتبدل في ثمراتها طبقا لدواعي البيئة والمناخ . إن الكمال هو قبر الأعمال . وما دامت هناك حياة أى حركة أى تغيير فلا بد من بحث هذه الأعمال المحبوسة في قبر كمالها لتنفض عنها قليلا من تراب القداسة لتنهض وتمشى باحثة عن الثياب الملائمة للعصور الجديدة .. كونوا على ثقة أن تخليد الأعمال القديمة هو في بعضنا بصورة جديدة . وليس في تركها بغبارها . وهي في إشعار الناس بأن جوهرها حق وإن كان في بعض نسيجها ما يحتاج إلى رتق . فالأعمال

الزائلة هي التي لا تنفع الناس ولا تبقى في الأرض مهما ترتفع بها الهتافات
والشعارات . والأعمال الزائفة هي التي تخدع الناس مهما تملأ أبصارهم
بالأضواء المثيرة للخلابة .. وإذا كانت هذه الثورة اليوم تستقبل عامها
العشرين . عمر فتاة نضجت لاستقبال حياة مقبلة باسمها بالسعادة .
فإني لست بالبعيد عنها .

أنا أيضا أبتسم لها بروحي المرفرفة وأدعو لها باليمن والهناء والفوز
المبين ، في ظل حضارة عصرية تنشئها لنفسها كما أنشأت هذه الأرض
حضارة العصر القديم .. »

هكذا تكلم عبد الناصر .. بروحه التي أسمعا ..

حسين فوزى وعيده الماسى

. فى شهر يوليو القادم يبلغ العالم الأديب الفنان الدكتور حسين فوزى الخامسة والسبعين من عمره . وإلى إعلانها اليوم حتى يتسع الوقت أمام هيئاتنا العلمية والأدبية والفنية للعمل على الاحتفال بالعيد الماسى لرجل حمل طول حياته مصباح المعرفة ليضىء العقول والقلوب فى هذا الوطن : وكان هذا هدفه الوحيد منذ شبابه . منذ اليوم الذى ترك فيه مهنة الطب وما كان يمكن أن تدر عليه من منافع مادية ليذهب إلى بلاد النور يأق منى بزيت يملأ به مصباحه .

كنت قد سبقت صديق العمر حسين فوزى إلى هناك . تاركا أنا الآخر مهنة المحاماة ، وانتظرتة ، حتى جاء . ومنذ ذلك اليوم لم نفترق قط . كان ذلك منذ خمسين عاما باتمام ، أى فى عام ١٩٢٥ جاء فى الحريف بعد أن حضر افتتاح الأوبرا التى ألفها « ليلة كليوباترا » التى رافقنى نظمها البديع وشجعت داود حسنى على تلحينها بعد أن شككا لى كامل الخلعى من صعوبة قوافيها . كان أول ما ابتدأت به حسين فوزى عندما وضع قدمه فى باريس هو سؤالى عن تلحين « ليلة كليوباترا » ملحا عليه أن يسمعنى لحننا من ألحانها بصوته « غير الشجى » ففعل ولم أتبين شيئا من النغم فى صوته فهو عازف جيد على الكمنجة ولكنه ليس بالمغنى . فى حين لم أكن أنا بالعازف على أية آلة موسيقية ، وإن كنت أغنى لنشأتى بين عوالم الفرح .

وضاع منى الصوت منذ أكثر من ثلث قرن وأصبح حشرة ، في حين ظل حسين فوزى حتى اليوم معانقا الكمنجة لم يترك العزف عليها ولا الاهتمام بها لحظة واحدة . بل إنه لم يترك قط شأنا من شئون المعرفة : فلم يشغله الفن عن العلم ، فهو ما زال حتى اليوم مرتبطا بكلية العلوم يحمل نفسه في سرور أعباء امتحانات الطلبة كل عام وهو في هذه السن . كما لم يشغله العلم عن الأدب فهو يؤلف الكتب ويكتب المقالات بأسلوبه الممتع الرفيع . وهو لا يكل ولا يمل من التنقل هنا وهناك في أنحاء مصر والبلاد العربية والأجنبية يلقي المحاضرات ينفع بها الناس ... إنه منار على بحر الإنسانية يلقي الضوء في كل اتجاه ..

إلى الذين يحبون حسين فوزى من أهل العلم والأدب والفن فليفكروا معي فيما ينبغي أن نفعله تعبيرا عن حبنا وتقديرنا في مناسبة عيد الماسي .

يوسف السباعي في ذكره الأولى

بدأت معرفتي بيوسف السباعي في صورة مرحة ساخرة مماثلة لطبيعته في الحياة وأسلوبه في الأدب . بدأت في عام ١٩٤٨ يوم ظهرت الطبعة الأولى من كتاب له عنوانه « يا أمة ضحكت » بكلمة منه قال فيها إنه فكر في أن يطلب إلى « توفيق الحكيم » تقديم كتابه إلى القراء ، فنصحته الناصحون أن ينبذ هذه الفكرة من رأسه مؤكدين له أن « توفيق الحكيم » لا يتحرك إلا بالنقود ، وأنه إذا أعطاه مائة جنيه فإنه يكتب المقدمة ، وعندئذ طرح « يوسف السباعي » في الحال هذه الفكرة من دماغه وهو يقول ضاحكا لأصدقائه : « لو كان في حوزتي مائة جنيه لوفرت على نفسي مشكلة الكتابة » .. ومضت أعوام نشر فيها يوسف السباعي العديد من مؤلفاته الناجحة وذاع اسمه وامتأججيه ، فعاد إلى أخيرا راسخ القدم ثابت الجنان يطلب المقدمة للطبعة الثالثة من كتابه المذكور في وثوق واطمئنان ، فلبيت في الحال ورضيت أن أكتب المقدمة في غير تردد ولا مساومة . ولم يكن ذلك لأنني عن نفسي تهمة الناصحين ، بل لأثبت له أن الدنيا هي دائما الدنيا .. العاجزون فيها يجب أن يدفعوا ثمن عجزهم ، أما القادرون فإنهم يخدمون بالجمان لأن الناس أحيانا يكتفون من الذهب بالرين .. قف على قدميك أولا ثم مد يدك طالبا العون .. وقد يقول قائل : « ما دمت وقفت على قدمي فما حاجتي أن أمد يدي ؟ » وهذا

ما قاله برنارد شو عندما قدمت إليه جائزة نوبل بآلاف جنيهاتها : أين كانت هذه الجائزة المالية يوم كنت ناشئا عاجزا أضرب بساعدى الضعيفتين ضرب اليأس فى أمواج الحياة المظلمة ؟ أبعد أن وصلت إلى الشاطئ يلقون إلى بطوق النجاة ١٩ « ولم يتلق جوابا .. لأن ذلك هو قانون الحياة ... إن أطواق النجاة لا يتعلق بها إلا من انتصر فعلا على الأمواج .. وهذا الانتصار فى بحر الأدب يحتاج إلى كفاح مرير ليظهر أثره من خلال الكتاب الأول .. وقليل من الناشئين من يجاهد فى الظلام طوال الأعوام ، ليرفع بعدئذ يده فوق بالكتاب الذى يستحق التقديم .. وتلك حالة يوسف السباعى . لقد جاءنى بعد أن عرف قراؤه ملامحه واتجاهاته فأحبوه وتبعوه حينما كتب ونشر .. فهو سهل عذب باسم ساخر ، يتناول بالرمز والسخرية بعض عيوب المجتمع المصرى ويسجل الكثير من المشاعر والأفكار التى تساور الناس فى عصره . وإن عصر يوسف السباعى قد ظفر من قلمه الحى بصفحات نضرة سوف تظل محتفظة بنضرتها إلى زمن طويل . رحمه الله رحمة واسعة وأدخله جناته خالدا فيها بما قدمه لبلاده من أعمال جليلة ومن خلق قويم ومن مشاعر جميلة .

العقاد في ذكره

العقاد في نظري ليس الشخص المتجهم العبوس العنيف ولكنه الإنسان
الودود المبتسم اللطيف . وكلما رأيتك كانت له معنى نادرة فكهة .
من ذلك أنه جاء لزيارتي في مكتبي عندما كنت مديرا لدار الكتب .
و كنت قبل تعييني حرا أجلس على قارعة الطريق في قهوتي المعتادة وعلى
رأسي القلنسوة التي تسمى « البيريه » فلما عينت في وظيفتي لبست
بالضرورة الطربوش شأن الموظفين في ذلك العهد .
ووجدني العقاد وعلى رأسي الطربوش مكبوسا والعرق يسيل على
جبيني من قيظ الصيف . فقد كنا وقتذاك في منتصف شهر يوليو ، فنظر
العقاد إلى عرقى والطربوش على رأسي حتى الأذنين وقال لي :
« انت خائف تقلع الطربوش يفتكروها استقالة » .!!!

عن العيد المثنوى للأهرام

هذا المقال كتبه الأستاذ توفيق الحكيم منذ حوال ٣٠ عاما ، يوم ٢١ يناير ١٩٤٥ ، وكان عمر الأهرام وقتئذ ٧٠ عاما . كان احتفال جريدة الأهرام بمرور مائة عام على مولدها مجرد حلم عابر تحدث عنه رئيس تحريرها في ذلك الوقت ، أنطون « بك » الجميل . وعندما زار توفيق الحكيم الأهرام مهنتا بعيد الميلاد السبعين للجريدة قال لرئيس التحرير مداعبا : سأكتب إلى جريدتنا هذه مهنتا عندما تبلغ المائة من عمرها . وكان رد الحاضرين — كما هو مسجل في مقدمة المقال — إن الحكيم « يسوف » وإنه « إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة . . هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل : أنت لتكتب ونحن لنهنيء ؟ » . وحسنت المناقشة عندما طلب الحاضرون من توفيق الحكيم « بخياله بعيد المدى » أن « يتصور » الأهرام وقد بلغ عمره مائة سنة . وكتب الأستاذ توفيق الحكيم المقال . ومد الله في عمره حتى عاش احتفال الأهرام بعيد المثنوى .

ولقى الجميع ربهم باستثناء كاتب المقال — الأستاذ توفيق الحكيم — والفنان صاروخان الذي رسم الصورة « متخيلا » الحكيم وهو يكتب المقال في العيد المثنوى .

كان المقال الأول يطلب من أنطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام في

عام ١٩٤٥ .

والتعليق الذى يكتبه توفيق الحكيم على مقال الأمس تم بطلب من على حمدى الجمال رئيس تحرير الأهرام السابق .

واليوم ما هو رأى فيما قلت وتنبأت منذ ثلاثين سنة ؟ .. إلى الآن أرجع بفكرى لأحاول تذكر ما قلت . كما كنت فى الماضى أمد خيالى إلى الغد محاولاً رؤية ما هو آت ... لقد كنا فى تلك الليلة .. ليلة أول يناير ١٩٤٥ مجتمعين فعلاً فى ندوة الأهرام كما قال رئيس تحريرها وقتئذ أنطون الجميل فى تقديمه لخطابى .. لقد كانت ندوة تضم شخصيات البلد من كل صنف ولون .. منهم الوزراء وأحياناً رؤساء الوزارات أثناء التقاعد ، ومنهم الشعراء والأدباء ، بل أيضاً مشاهير المحامين والمهندسين والأطباء ... منهم الزائر الدائم المنتظم ، ومنهم الواصل المتردد من حين إلى حين .. عقول مصر كلها كان لابد لها أن تمر يوماً وأن تصادف فى ندوة الأهرام ... وما كان العدد يزيد مع ذلك كل ليلة على العشرين ، فحجرة أنطون الجميل ما كانت تتسع لأكثر من ذلك العدد . وكان هو يجلس إلى مكتبه يباشر عمله الصحفى فى حضور المجتمعين ، وهم يسمررون ويتناقشون فى صخب أو هدوء حسب الأحوال . وهو مشغول عنهم بعمله ، ويشارك أحياناً فى الأحاديث بفكرة طارئة أو بضحكة لنكتة عابرة .. كانت له مقدرة على التركيز فى العمل وسط هذا الجمع الصاخب . إلا إذا احتاج الأمر إلى تفرغ خاص فإنه يتركنا لحضات إلى حجرة صغيرة ملتحمة بمكتبه ، بها جهاز تليفونى للمكالمات المهمة والسرية .. وكنا نحن أعضاء الندوة لا نبدأ افتتاحها إلا قبل منتصف الليل (تحديات سنة ٢٠٠٠)

بساعة أو ساعتين لتتيح له وقتا يصرف فيه شؤونه ، ونجلس نحن في مقهى بار اللواء المواجه لمبنى الأهرام حتى تحين ساعة الندوة . وكان مقهى بار اللواء ، باسمه المنسوب إلى جريدة الزعيم مصطفى كامل ، مشهورا برواده من رجال السياسة والصحافة والأدب .

والعجيب في ذلك العهد أن اختلاف الانتماء الحزبي واحتدام المناقشات بين كل حزب لم يكن يمنع من لقاء الجميع في ندوة واحدة .. كان هناك تفريق بين الخصومة السياسية والخصومة الشخصية ..

فإذا دار حديث في السياسة كان من الطبيعي أن يعصف الجو بالنقاش الحزبي فإذا انقلب الحديث إلى موضوعات الشعر والأدب والفن ونحو ذلك فإن الجو يصفو بين الجميع على اختلاف ألوانهم الحزبية وكأنهم أبناء أسرة واحدة : أسرة الثقافة بمعناها الرحب ...

لذلك ، ما إن فتح في تلك الليلة باب الحديث في عمر الأهرام ، وما بقى له من أعوام ليبلغ المائة ، حتى هدا الصخب المحتدم حول المعركة الانتخابية التي كانت وقتئذ قائمة ، وجعل الحاضرون يتصورون ما سوف يكون الحال بعد ثلاثين سنة ... وهكذا اتجهوا نحوى بأبصارهم يطالبوننى بالتخيل ... وتخيلت وكتبت ما تخيلته في صورة خطاب منى إلى رئيس تحرير الأهرام أنطون الجميل بك لم يكن قد نال البشوية بعد .. وقد نالها فعلا بعد ذلك .. أما بقية التنبؤات فهي أمام قارئ اليوم ، له أن يقلب فيها النظر ليرى ما تحقق منها وما لم يتحقق ... أما فيما جاء من تخيلات عن حياتي الخاصة فقد كنت في ذلك الوقت عزبا لم أتزوج بعد ولا ألمح في أفق حياتي ما يبشر بزواج ولذلك جاء التنبؤ خيالا مشوبا بالمرارة

والتشاؤم ..

أما بعد ... فقد شاء الله تعالى أن أعيش لأرى الأهرام في عيدها المشوي بالواقع لا بالخيال .. مكررا لها التهئة ، وأنا حزين النفس إذ أقرأ عبارة أنطون الجميل عما قاله الحاضرون في تلك الندوة :

« .. إذا ضمنا لهذه المؤسسة ثلاثين سنة جديدة ، هل نحن ضامنون لكل منا مثل هذا الأجل ، أنت لتكتب ونحن لنهنيء ؟ » ...

ولقد ذهب بالفعل إلى رحمة الله أنطون الجميل ومعه أغلب الحاضرين ، كما ذهب ذلك الماضي كله بغيره وشره كأنه حلم .. وبقي فيمن بقي معي المصور صاروخان الذي تخيلني كيف سأكون اليوم .. ولم يكن من تقاليد الأهرام وقتذاك نشر التصوير الكاريكاتوري ، ولكن رئيس التحرير اضطر كما قال إلى خرق هذا التقليد لاستحالة نشر صورة فوتوغرافية لي بعد ثلاثين سنة ..

والآن ماذا أقول ؟ ... لم يعد شيء أقوله غير كلمة واحدة : كل شيء إلى زوال ومصر العزيزة هي الباقية .

الفكر .. هذه الصفحة

اليوم وقد أصبحت « للأهرام » صفحة باسم « الفكر » يجب أن نعرف أولا ما هو المقصود بكلمة الفكر ...؟ وهى كلمة تساولتها تعريفات وشروح وتفسيرات . ولكن أبسط ما أقول فيها هو أنها تعنى تأمل الأشياء بالعقل للوصول إلى المعرفة . ومن يمارس ذلك نطلق عليه وصف « المفكر » والمفكر وصف واسع شامل لأنماط عديدة من الناس ، فالفيلسوف مفكر والعالم مفكر .. والأديب مفكر .. والفنان مفكر .. والمخترع والمهني وكثيرون آخرون كلهم يشتركون في صفة التفكير . على أن كثيرين أيضا يؤدون أعمالهم بغير ذلك النوع من الفكر الذى نخص به من نطلق عليه اسم « المفكر » . أولئك هم الأغلبية الغالبة يؤدون أعمالهم بتفكير مسبق صنعه لهم الفكر ورسمه وشق طريقه فساروا فيه دون تأمل أو مناقشة . وهذه الأغلبية الغالبة هى التى تسعى الدول المتحضرة إلى تزويدها عن طريق الثقافة بقدر من النضج العقلى يمكنها من تأمل الأشياء وفحصها ، ليخلصها من الانقياد الأعمى للفكر المصنوع الجامد داخل تعريفات وشعارات . ولقد قلت ذات يوم إن مهمة « المفكر » الحق ليست في توجيه رأى العام ، بل في خلق الرأى العام . لأن التوجيه معناه الدفع والقرض والسيطرة وفي هذا التوجيه من المفكر انتصار لرأيه ، ولكنه في ذات الوقت خذلان لآراء أخرى جديدة بالنظر . إن المفكر في

نظري رجل تكوين وتربية وخلق لا رجل سيطرة وانتصار فهو لا يجب أن يلبسك رأيه ، بل يجب أن يخلق فيك رأيك . وإذا بقائل يقول : « إنك تفترض أن الناس جميعا قابلون أن يكونوا أحرارا ، وننسى أن أغلب الناس لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأى .. إنما هم يستسهلون ارتداء الآراء التي تصنع لهم صنعا .. » وهنا حقا المشكلة ، وإنها لتفاقم باتساع نطاق الحضارة . وهو تناقض عجيب . فنحن نريد من الحضارة أن تنضج العقول لتفحص الآراء فإذا هي قد تؤدي إلى العكس . فإن الكسل والسرعة والسهولة وغيرها مما يقترن بتكنولوجيا الحضارة تشجع الناس على طلب الآراء المصنوعة كما يطلبون السيارات والملبوسات وأجهزة الإذاعة والتلفزيون ويقبلون هذه الآراء باسترخاء ممن يحسن صنعها لهم وتقديعها إليهم في صناديق مجهزة مبسطة .. هنا حقا المشكلة . وهنا تزداد الضرورة لوجود المفكر المحرر الذي يذكر الناس دائما بأن يفحصوا ويحللوا ويناقشوا ما يقدم إليهم من ملبوسات الآراء الجاهزة ومصنوعات الشعارات الموضوعية . وأن لا يقبلوها إلا بعد أن تمر من مصفاة العقل والمنطق والاقتناع التام .. ولعل صفحة « الفكر » هذه التي يعرضها « الأهرام » اليوم على قرائه أن تكون داعية إلى الاهتمام بالتفكير وبالعقل ، إذ حث القرآن الكريم الناس على أن يعقلوا وأن يتأملوا في خلق الله وقدرته وعظمته .

والله ولي التوفيق ..

أذكر ... وأنا طفل

يعيش الإنسان مع ذكرياته الأولى أجمل اللحظات ، والدليل على ذلك هي تلك البسمة البريئة التي ترسم على وجه أى شخص نطلب منه أن يحكى لنا قصة من طفولته .. بل أكثر من ذلك .. فإننا نجد أنه يتحول إلى طفل وهو يقصها علينا .. بنفس الحماس ... ونفس الانفعال .. كأنه يعيشها من جديد .

واليوم يحكى لنا الكاتب الكبير توفيق الحكيم هذه الحكاية بلسان الطفل الصغير الذى يعيش بداخله وبداخل كل فنان كما يقول هو .. « لم تكن الألعاب الرياضية فى المدارس تستهوينى .. لذلك كنت أمر بجوار الفريق المتحمس لكرة « الشراپ » عند انصرافى من المدرسة دون حتى أن أتوقف لألقى عليهم نظرة .. إلى أن كان ذات عصر ، وجدت أحد أصدقائى يعترض طريقى ويقول :

— تعال قف حارسا للمرمى فى فريقنا لأنه ينقصنا واحد .. فلما اعتذرت بقولى إني لا أعرف هذه اللعبة ، قال إنها من أسهل الأمور ، وما على إلا أن أقف بين حجرين يمثلان المرمى وأمنع الكرة من الدخول بينهما ... وقبل أن أجيب كانوا قد أحاطوا بى ووضعونى وضعا وسط مرماهم .. فوضعت كتيبى فى ناحية والحجر فى الناحية الأخرى ، وبقيت أرقب اللعب الحامى من بعيد .. فإذا بموج المتزاحمين من الفريقين كل

يدفع الآخر بكتفه والكرة بقدمه ويصرخ ويشتد الضغط على المرمى الذى أنا حارسه .. وانتشر التراب فوسخ الثياب ، وثار الغبار فأعمى الأبصار وملاً الخياشيم ، فتركت المرمى وذهبت وأنا أسب مثل هذه اللعبة السخيفة ، وأسخر من لاعبيها . ولم يفتن أحد فى زحمة الهجمة والمعمعة إلى أن المرمى خال خاو لا حارس له إلا الله ... لكن أحدهم لحنى فجأة فاقترب منى وقال برفق :

— أرجوك المسألة جد وتهمنا . ولا يصح أن نهزم أمام الفريق الآخر وأنت حارس مرمانا .

فأثر قوله فى نفسى ونهضت قائلاً له :

— اطمئن ... لن نهزم أبدا ، ولن تدخل الكرة مرمانا أبدا ... ووقفت فعلا بين حجر المرمى وكتبى . ولكنى أمام كل هجمة من الفريق الآخر كنت أزحزح الحجر والكتب بعيدا دون أن يشعروا ... وأصبح بذلك مرمانا متنقلا متحركا لا يمكن أن تصل إليه كرة الخصوم أبدا ، أما أنا فقد مللت اللعب بعد قليل وذهبت غير آسف على ما يمكن أن يدخل المرمى من كرة أو غيرها .

(تمت بحمد الله)

فهرس

الموضوع	صفحة
إهداء	١٠
حوار ضاحك بين السادات والحكيم	١١
تحديات سنة ٢٠٠٠	١٣
القنابل الذرية	١٨
صفحة من ذكريات الحضارة والحوار	٢٣
الطعام لكل فم — قوة الشعوب	٣٤
هل المستقبل للذكاء أم للذاكرة	٣٦
المفكرون وصورة المستقبل	٣٧
هل أعدت خطة لبناء عقل وروحى جديد	٣٩
حول ثقافة مصر	٤١
دعونا نتعلم كيف نفكر	٤٤
فى المفكر وطريقة التفكير	٤٧
الفرق بين تقديم السمكة وصيد السمكة	٥١
مدينة العلماء	٥٣
عودة الشباب	٥٥

الموضوع	صفحة
حياتنا .. ماذا بعد موتنا ..	٦٩
تهنئة للديمقراطية ..	٧٤
مرضى الإرهاب والطبيب فالدهايم ..	٧٦
أسخف مقال ..	٧٩
للمبادرة معنيان ..	٨٣
اقتراح ..	٨٦
تحت ظلال السلام ..	٨٨
نداء من توفيق الحكيم ..	٩١
الحياة ..	٩٣
هذا هو رأى مصر فى حياة مصر ..	٩٧
العروبة بين الوحدة والحياة ..	١٠٧
هذا معنى الحياة الذى أطالب به ..	١١٤
يجب أن نحدد موقفنا أولا ..	١١٧
المنبع فى الدين ..	١١٩
فقه الشريعة : بين الجمهور والتغيير ..	١٢٢
يا ضرائب قولى لى .. رسالة أم مهنة ..	١٢٨
هل الجمهور هو الذى يحدد ملامح المسرح ..	١٣١

الموضوع	صفحة
المنيرة	١٣٤
الصنفة	١٣٨
البرجة	١٤٤
الحزبة	١٤٨
غلق الملفات	١٥٤
الإنسان حيوان كلامنجي	١٥٨
إجازة للعمال	١٦٢
تاكسي	١٦٦
على شط النيل	١٧٠
العيون المفتوحة	١٧٤
الثوري والمترم	١٧٨
فلندع رجل التاريخ للتاريخ	١٨٢
العمل واللعب	١٨٥
تراخي الإيقاع	١٨٩
السياسة بين الفكر والعمل	١٩٣
الفنان والجمهور	١٩٧
كتابة التاريخ	٢٠١

الموضوع	صفحة
مأساة العظماء	٢٠٥
ذكريات	٢٠٩
الحب في جهنم	٢١٣
هكذا تكلم عبد الناصر	٢١٧
حسين فوزى وعيده الماسى	٢١٩
يوسف السباعى في ذكراه الأولى	٢٢١
العقاد في ذكراه	٢٢٣
عن العيد المئوى للأهرام	٢٢٤
الفكر .. هذه الصفحة	٢٢٧
أذكر .. وأنا طفل	٢٣٠

رقم الإيداع ١٩٨٨ / ٣٣٣١

الترقيم الدولي ٢ - ٠٤٠١ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

الثمان ٦٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه